

مبادئ الإسلام

أبو الأعلى المودودي

المقَدّمَة

ليس الإيمان بالله وبما أوجد على الأرض، وفي السماء وما بينهما، ليس الإيمان بخالق الكون ومدبّره بكلمات يتغنّى البعض بالنطق بها، رئاء الناس وإرضاء لهم ؛ إنما الإيمان بالله اعتقاد مكين بالقلب مع تلفظ فاضل باللسان، وقيام بأعمال مفروضة تؤكد أن العبودية هي للبارئ تبارك اسمه، وجلّت قدرته، لا شريك له في الملك. وأنه لا يصح الإيمان بالله، ولا العبودية له إلا بتنفيذ أوامر الدين الذي جاء به الرسول الكريم من لدن حكيم عليم.

ومؤلف هذا الكتاب الأستاذ الجليل أبو الأعلى المودودي، بعد أن وعى الحال المؤلمة التي وصل إليها المسلمون في بلاده، وفي جميع بلاد الإسلام قاطبة، قام بدعوته إلى التحرر من ربقة ما لصق بالمسلمين من ترهات وأضاليل ؛ وإلى العودة إلى دين الفطرة وإلى التمسك بالقيام بأوامر الله وبسنّة رسوله الصادق الأمين.

وتسهيلا لمن يريد التفقّه في الدين، وحثاً لمن حاد عن الطريق المستقيم نراه في مؤلفه هذا شارحاً ماهية الأديان وما ترمي إليه من خدمة للبشر ومتحدثا عن النبوّة التي ختمت بمحمد، صلى الله عليه وسلم، مثبتاً أن الدين عند الله الإسلام وأنه الشريعة العالمية الصالحة لبني آدم على مدِّ الدهور.

وهو في مؤلفه هذا يدعو إلى ربه بالموعظة الإسلامية الحسنة، ويطالب بالعودة إلى الأصالة الدينية الحنيفة السمحاء، حتى يتمكن الإنسان من الفوز بالسعادة الدنيويّة والأخرويّة.

وأخيرا، فيا قارئ هذا السفر المفيد، سارع إلى مغفرة من ربك ورضوان بدعوة من في قلوبهم زيغ أن تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألاَّ نعبد إلا الله الذي أحسن صورنا، وجعلنا خلائفه على الأرض، ورزقنا من خير الثمرات وطيِّبها.

وحمداً للمولى — تعالى اسمه — على آلائه ووفرة نعمه.

الناشر

الفَصل الأول

الإسلاَم

لماذا سمي الدين بالإسلام :

إن جميع ما في الأرض من مختلف الديانات، قد سميت بأسمائها، إما نسبة إلى رجل خاص، أو أمّة معينة ظهرت وترعرعت بين ظهرانيها. فالمسيحية، مثلاً، أخذت اسمها من السيد المسيح # ، وتسمت البوذية على اسم بانيها بوذا، واشتهرت الزردشتية باسمها لأن مؤسسها وحامل لوائها كان زردشت. وكذلك ظهرت اليهودية بين ظهراني قبيلة تعرف بيهوذا، فسميت باليهودية، وهلم جرا. إلا الإسلام، فإنه لا ينتسب إلى رجل خاص، ولا إلى أمّة بعينها، وإنما يدل اسمه على صفة خاصة يتضمنها معنى كلمة الإسلام. ومما يظهر من هذا الاسم أنه ما عني بإيجاد هذا الدين وتأسيسه رجل من البشر، وليس خاصاً بأمة معينة دون سائر الأمم، وإنما غايته أن يحلي أهل الأرض جميعاً بصفة الإسلام، فكل من اتصف بهذه الصفة، من غابر الناس وحاضرهم هو مسلم، ويكون مسلماً كل من سيتحلى بها في المستقبل.

معنى كلمة الإسلام :

وإذا راجعت معاجم اللغة، علمت أن معنى كلمة الإسلام هو " الانقياد والامتثال لأمر الآمر ونهيه لا اعتراض ". وقد سمي ديننا بالإسلام لأنه طاعة لله وانقياد لأمره بلا اعتراض.

حقيقة الإسلام :

من المعلوم أن كل شيء في هذا الكون، منقاد لقاعدة معينة، وقانون خاص. فالشمس والقمر والنجوم مسخرات تحت قاعدة مطردة، لا قبل لها بالحراك عنها والخروج عليها ولو قيد شعرة، والأرض تدور حول قطبها، ولا يدب في ما قدر لها من الزمن والحركة والطريق، دبيب التغير والتبدل. والماء والهواء والنور والحرارة كلها مذعنة لنظام خاص... وللجمادات والنباتات والحيوانات ضابطة، لا تنمو ولا تنقص ولا تحيا ولا تموت إلا بموجبها. حتى أن الإنسان نفسه إذا تدبرت شأنه، تبين لك أنه مذعن لسنن الله إذعاناً تاماً، فلا يتنفس ولا يحس حاجته إلى الماء والغذاء والنور والحرارة إلا وفقاً لقانون الله المنظم لحياته. ولهذا القانون نفسه ينقاد قلب الإنسان في حركته، ودمه في دورانه، ونفسه في دخوله وخروجه، وله تستسلم جميع أعضاء جسده كالدماغ والمعدة والرئة والأعصاب والعضلات واليدين والرجلين واللسان والعينين والأنف والأذن. فليست الوظائف التي

تؤديها هذا الأعضاء كلها إلا ما قدره الله لها، وهي لا تقوم بها إلا حسب ما قررت لهـــا من الطريق.

فهذا القانون الشامل، الذي يستسلم له ولا ينفك عن طاعته شيء في هذا الكون، من أكبر سيارة في السماء، إلى أصغر ذرّة من الرمل في الأرض، هو من وضع ملك جليل مقتدر. فإذا كان كل شيء في السماوات وما بينهما منقاداً لهذا القانون، فإن العالم كلـــه مطيع لذلك الملك المقتدر الذي وضعه، ومتبع لأمره. ويتبين من هذه الوجهة، أن الإسلام دين الكون طراً، لأن الإسلام معناه الانقياد والامتثال لأمر الآمر ونهيه بلا اعتراض كمـــا عرفت آنفا. فالشمس والقمر والأرض مسلمة، والهواء والماء والنور والظـــلام والحـــرارة مسلمة، والشجر والحجر والأنعام مسلمة، بل إن الإنسان الذي لا يعرف ربـــه ويجحـــد وجوده وينكر آياته، أو يعبد غيره، ويشرك به سواه، هو مسلم من حيث فطرته التي فطر عليها. وذلك أنه لا يولد ولا يحيا ولا يموت، إلا وفقا لما وضع الله تعالى من قانون لولادته وحياته وموته. وكذلك كل أعضاء جسده، لا تدين إلا بدين الإسلام، لأنها لا تنـــشأ ولا تكبر ولا تتحرك إلا حسب هذا القانون الإلهي نفسه، بل الحق أن لسانه الذي يـــستخدمه في إبداء آراء الشرك والكفر جهلاً وسفهاً، لا يدين — في نفسه — إلا بـــدين الإســـلام. وكذلك رأسه، الذي يكرهه على الانحناء أمام غير الله، لا يدين إلا بدين الإسلام بـــسائق فطرته التي فطر عليها، وكذلك قلبه الذي يغمره بحب الآخرين مـــن دون الله وإجلالهـــم جهلاً وسفهاً، إن هو إلا مسلم من لدن فطرته وسجيته. فكل قد أسلم لله وانقاد لقانونه.

إذا أدركت هذا فتعال ننظر في الواقع من وجهة أخرى.

للإنسان في حياته جهتان مختلفتان:

الأولى أنه منقاد لقانون الفطرة مجبول على اتباعه.

والأخرى أنه أوتي العقل وقوة الفهم والتأمل والرأي، فهو يسلم بشيء وينكر آخر، ويحب طريقاً ويكره غيره، ويضع من تلقاء نفسه ضابطة لمختلف نواحي الحياة، أو يقبل ما وضعه غيره من نظام للحياة، فهو غير مقيد من هذه الدنيا، بل قد أوتي حرية الفكر وحرية الاختيار في الرأي والعمل.

هاتان الجهتان المختلفتان توجدان في حياة الإنسان كل على حدة.

فمن الجهة الأولى هو مسلم قد جبل على الإسلام وفطر على التزامه. شان غيره من المخلوقات في هذا الكون، وقد عرفت ذلك آنفا.

ومن الجهة الأخرى هو بالخيار في كونه مسلماً أو غير مسلم. وهذه الخيرة هي التي تجعل الإنسان على نوعين:

إنسان يعرف خالقه، ويؤمن به رباً ومالكاً وسيداً لنفسه، ويتبع قانونه الشرعي في حياته الاختيارية. كما هو تابع لقانونه الطبيعي في حياته الجبرية، وهذا هو المسلم الكامل الذي قد استكمل إسلامه، لأن حياته أصبحت الآن الإسلام بعينه، وهو قد استـــسلم —

رغبة وطواعية — للذي كان يطيعه وينقاد لقانونه من غير شعور من قبل، وقد أصبح الآن — قصداً وعمداً — مطيعاً لربه الذي كان قبل ذلك يطيعه من غير قصد ولا إرادة، وقد أصبح علمه صادقاً لأنه عرف الله خالقه وبارئه الذي أولاه قوة العلم والتعلم، وأصبح عقله ناضجاً ورأيه سديداً لأنه أعمل فكره ثم قضى ألا يعبد إلا الله الذي أكرمه بموهبة الفهم والرأي في الأمور، وأصبح لسانه صادقاً ناطقاً بالحق لأنه لا يقر الآن إلا برب واحد هو الله تعالى الذي أنعم عليه بقوة النطق والكلام... فكأن حياته ما بقي فيها الآن إلا الصدق، لأنه منقاد لقانون الله فيما له الخيرة فيه من أمره. وامتدت بينه وبين سائر المخلوقات في الكون آصرة التعارف والتآنس، لأنه لا يعبد إلا الله الحكيم العليم، الذي تعبده وتذعن لأمره وتنقاد لقانونه المخلوقات كلها. فهو الآن خليفة الله، أي نائب عنه في أرضه. فله كل شيء في الدنيا وهو لله تعالى وحده.

حقيقة الكفر :

وبإزائه إنسان آخر، ولد مسلماً وعاش مسلماً طول حياته، من غير أن يشعر بإسلامه أو يفطن له، ولكنه ما أعمل قوته العلمية والعقلية، ليعرف من خلقه، وشق سمعه وبصره. فأنكر وجوده، واستكبر عن عبادته، وأبى أن ينقاد لقانونه الشرعي فيما أوتي فيه حق التصرف والاختيار من أمور حياته أو أشرك به غيره، وأبى أن يؤمن بآياته الدالة على وحدانيته، وهذا هو الكافر. ذلك بأن معنى الكفر هو الستر والتغطية والمواراة. يقال : كفر درعه بثوبه إذا غطاها به ولبسه فوقها، فيقال لمثل هذا الرجل " كافر " لأنه ستر فطرته وغطاها بغطاء من الجهل والسفاهة. وقد علمت أنه ما ولد إلا على فطرة الإسلام، ولا تعمل كل جارحة من جوراح جسده إلا طبقاً لفطرة الإسلام، ولا تسير الدنيا حوله بأسرها إلا على سنن الإسلام. ولكنه غطي بحجاب مستور من الجهل والسفاهة، وتوارت عن بصيرته فطرة الدنيا وفطرة نفسه، فتراه لا يستخدم قواه الفكرية والعلمية إلا فيما يخالف فطرته، ولا يرى إلا ما يناقضها، ولا يسعى إلا فيما يبطلها.

ولك أن تقدر الآن بنفسك ما ارتكس فيه الكافر من الضلال البعيد والغي المبين.

مضار الكفر وعواقبه السيئة :

الكفر جهل ! بل الجهل الحقيقي هو الكفر... أي جهل أكبر وأدهى من جهل لا يعرف ربّه ؟.. يشاهد مصنع هذا الكون العظيم دائباً على عمله، ليل نهار، ثم لا يعرف من خلقه، وأوحى إليه الدأب على عمله ؟ ومن ذا الذي ركّب الفحم والهيدروجين والأكسجين والآزوت والصوديوم، والكلسيوم وغيرها من المواد التي لا حياة لها ولا عقل، وأخرج منها كائنا عظيماً خطيراً كالإنسان ؟ أو ليس مما يقضي العجب، أن يشاهد في كل ناحية من نواحي هذا الكون أشياء كثيرة، تدل بنفسها على ما يحتاج إليه صنعها

وتحسين منظرها من براعة نادرة منقطعة المثال، في الهندسة والرياضيات والكيمياء وغيرها من العلوم، ثم لا يهديه عقله إلى معرفة ذلك العزيز الحكيم العليم، الذي عني بصنعها وإنشائها ؟ تفكر قليلاً : هل يمكن أن ينفتح باب العلم الصحيح في وجه هذا الرجل الذي ضلّ حتى عن مبدأ العلم ؟ إنه مهما بالغ في التفكير والتفحص وازداد بحثاً وتنقيباً، فلن يهتدي إلى طريق مستقيم متحقق يوصله إلى العلم الصحيح في أي شعبة من شعب الحياة، لأنه يواجه ظلمة الجهل في أمره، وكذلك لا يواجه في آخره سواها.

الكفر ظلم ! بل أعظم الظلم وأشنؤه هو الكفر... ذلك أن معنى الظلم أن تضع الشيء في غير محله اللائق به وتستعمله إكراهاً فيما لا تلتئم به فطرته. وقد عرفت أن كل ما في السماوات والأرض من شيء مذعن لأمر الله، مفطور على فطرة الإسلام، حتى أن الإنسان وجسده بكل ما يشتمل عليه من الأعضاء لم يولد إلا على هذه الفطرة نفسها، نعم، لا شك أن الله قد أعطى الإنسان جانباً من حق التصرف في هذه الأعضاء ولكن الذي تقتضيه فطرتها ألا يتصرف فيها إلا حسب مرضاة خالقها. فالذي يكفر بالله، إنما يتصرف في أعضاء جسده على وجه لا يوافق فطرتها. تراه يعمر قلبه بظلمات الإجلال والحب والرهبة لغير الله، مع أن الفطرة التي فطر عليها قلبه تطالبه بأن يغمره بنور الإجلال والحب والرهبة لله الصمد وحده. وكذلك يستخدم سائر أعضاء جسده، وكل ما تحت يده من شيء في هذا الكون، فيما يناقض مرضاة الله تعالى، مع أن الطبيعة التي جبلت عليها هذه الأعضاء والأشياء تقتضيه ألا يستخدمها إلا طبقاً لما جاء به قانون الرب تعالى. فقل لي بالله : من أظلم ممن يقضي حياته ظالماً لكل شيء حتى لنفسه في هذه الدنيا؟

ليس الكفر بظلم فحسب، بل هو بغي وعدوان وجحود وكنود أيضاً. أو ترى الإنسان مالكاً لشيء مما يجده بين يديه ؟ من ذا الذي خلق عقله ودماغه ؟ أهو نفسه أم الله عز وجل ؟ ومن ذا الذي خلق قلبه ولسانه، وعينيه وأذنيه، ورجليه، ويديه، وسائر أعضاء جسده ؟ أهو نفسه أم الله تبارك وتعالى ؟ ومن ذا الذي أحسن خلق هذه الأشياء، وجعلها نافعة له، ومكنه من استخدامها والتمتع بها ؟ أهو نفسه أم الله سبحانه وتعالى ؟

لا بد أن يكون جوابك عن هذه الأسئلة أن هذه الأشياء كلها لله وحده، وهو الذي خلقها وأحسن صورها، وهو مالكها وهو الذي أنعم بها على الإنسان، فإذا كانت هذه هي الحقيقة، وهي هكذا من غير شك، فمن يكون أكثر ظلماً وأمعن في الغي والعدوان ممن يستخدم عقله في التفكير فيما يناقض مرضاة الله تعالى ويعمر قلبه بأفكار تجلب عليه سخطه. ويكره لسانه وعينيه ويديه ورجليه على العمل بما ينافي أحكام الله وأوامره ؟ إنك تحكم بالكنود على عبد نشأ على رزق سيده، ثم لا يوفيه ما عليه من حقه، وكذلك ترمي بالبغي والخروج على الحكومة موظفاً يستخدم ما بيده من حق التصرف، في وجوه تخالف مصالح الحكومة، وتنسب إلى الكفران من يتناسى ما لصاحبه عليه من معروف... ولكن ما هي حقيقة كفران الإنسان وبغيه وتناسيه لما عليه من

معروف لإنسان آخر مثله ؟... من أين جاء هذا الإنسان بما عنده من الرزق حتى يتفضل به على غيره ؟... أليس الله تعالى وحده هو الذي آتاه قوة السلطة والأمر ؟... وأنّى للإنسان أن يمنّ على إنسان مثله ويصنع إليه معروفاً ؟... أليس الله تعالى الذي مكّنه من كل ذلك ؟... إن أكبر حق على الإنسان في هذه الدنيا هو ما يجب عليه نحو والديه، ولكن من هذا الذي ألقى في قلوب الوالدين حب الأولاد والحنو عليهم ؟ أم من هذا الذي جعل الأم رحيمة بمن حملته كرهاً ووضعته كرهاً ؟... أم من هذا الذي ألقى في روع الوالد أن ينفق، راضياً مطمئناً، ما كسبه بعرق جبينه على مضغة حقيرة، ويضحّي في سبيل تربيتها وتعليمها بكثير من أوقاته وأمواله ورفاهيته ؟

فقل لي بالله : هل هناك كفر أفظع من كفر من لا يؤمن بالله، ويأبى أن يقر له بالألوهية والربوبية، ويعرض عن طاعته وامتثال أمره ؟... وهل يمكن أن تجد بغياً أبشع من بغيه، وغدراً أشنع من غدره، وكنوداً أغلظ من كنوده ؟

ولا تظنن أن الإنسان يجلب إلى الله شيئاً من الضرر إذا كفر به... كيف والله تعالى ذو ملك عظيم لم يعرف بعد أقصاه من أدناه على كل ما بذل الإنسان من الجهود المتتابعة الشاقة، واستعمل من الآلات الضخمة النظارة لهذا الغرض. وله سبحانه وتعالى تسجد الأرض والشمس والمريخ وغيرها من السيارات الكبيرة التي لا يأتي عليها الإحصاء فتراها ككرات صغيرة حقيرة في مملكته، وله عزّ وجل خزائن السماوات والأرض من غير مشارك ولا منازع، وهو الصمد الجواد الكريم الذي يفتقر إليه الجميع وهو لا يفتقر إلى أحد. فأنّى للإنسان، هذا المخلوق العاجز الواهن، أن يجلب إلى الله شيئاً من الضرر إذا كفر به ؟... إنه إن آمن فلنفسه وإن كفر فعليها.

ومن نتائج الكفر والعصيان المحتومة أن يكتب الخسران والخيبة للإنسان، فلا يهتدي إلى صراط العلم المستقيم أبداً، لأن العلم الذي لا يعرف ربه، أنّى له أن يعرف غيره معرفة صحيحة ؟... وكذلك لا بُدّ أن يسلك عقله طرقاً معوجة في كل شأن من شؤون حياته، فإن العقل الذي لا يهتدي إلى معرفة خالقه، أنّى له أن يعرف غيره معرفة سليمة ؟ وكذلك لا بد أن يهيم على وجهه ويبوء بالخيبة بعد الخيبة في كل أمر من أموره، وأن تفسد عليه أخلاقه ومدنيته وعشرته ومعيشته، وحكومته وسياسته، ويعيث في الأرض مفسداً، ليسفك الدماء، ويعبث بحقوق الناس، ويذيقهم ألواناً من الظلم والقسوة. فهكذا ينغص على نفسه الحياة بأفكاره الفاسدة، وأعماله المنكرة. هذا في الحياة الدنيا، وأما في الآخرة، فيقوم في وجهه كل شيء – صغير أو كبير – اعتدى عليه في الدنيا ويشهد عليه... ففي محكمة الله العادلة، يرفع القضية عليه عقله وقلبه، وعيناه وأذناه، ويداه ورجلاه، وسائر أعضاء جسده : " رباه ! إن هذا الظالم خرج عليك في الحياة الدنيا، وأعرض عن ذكرك، واستخدَمَنَا كرهاً وقسراً في معصيتك ". وفي هذه المحكمة العادلة، التي لا بيع فيها ولا خلة ولا شفاعة، تستعدي عليه تلك الأرض التي مشى وسكن على

وجهها عاصياً لله تعالى، وتلك الأموال التي اكتسبها بطرق محرّمة وأنفقها في سبل محرّمة، وتلك الأشياء التي تصرف فيها تصرف الغاصب عدواناً وظلماً، وتلك الأدوات والقوى التي استخدمها في هذا الظلم والعدوان على كراهية منها. والله سبحانه وتعالى – ومن أحسن من الله حكماً – يغيث جميع هؤلاء ويقطع لها الحق الموفى بإزاء هذا الظلم العاتي، ويذيقه عذاب الهون والخزي، جزاء ظلمه وعصيانه.

فوائد الإسلام :

هذه مضار الكفر وعواقبه. فتعال ننظر الآن في ما يعود علينا به الإسلام من الفوائد إذا آثرناه ورضينا باتباعه.

وقد عرفت من البيان السابق أن هذا الكون فيه من الآيات والعلامات المبثوثة في كل ناحية ما يدل على ألوهية الله وربوبيته فهذا المعمل الكوني العظيم الذي نراه سائراً سيراً مطرداً، مذعناً لنظام شامل وقانون ثابت، يشهد بلسان حاله أن خالقه ومدبر أمره حاكم جليل، ذو سلطة وقوة عظيمة، لا يخرج عن نفوذه شيء في الأرض ولا في السماء. وكذلك عرفت أن الإنسان من فطرته أيضاً كسائر الكون أن يطيعه، فتراه يطيعه ليلاً ونهاراً عن غير شعور منه، وذلك أنه من المستحيل على الإنسان أن يبقى حياً إذا خالف قانون الطبيعة.

غير أن الله سبحانه وتعالى، قد وهب للإنسان جانباً من الحرية في إرادته وفضله على العالمين بملكة العلم، وقوة الفكر، والتمييز بين الخير والشر. والإنسان وعلمه وعقله وقوة تمييزه خاضع لامتحان في هذه الحرية، وهو دائماً بعين خالقه ينظر كيف وفيم يستعمل هذه الحرية ؟... والإنسان لم يجبر أن ينهج في هذا الامتحان نهجاً معيناً، ولو أنه أجبر لبطلت غاية الامتحان. وذلك أمر واضح لا إشكال في فهمه، لأنه إذا جاءك في ورقة الامتحان سؤال أجبرت عليه بجواب معيّن معلوم، فأي فائدة تأتي من هذا الامتحان ؟... الحق أنه لن تظهر كفاءتك على الوجه الصحيح إلا إذا كنت مخيراً تخييراً تاماً في كل جواب تريده، فإن كان جوابك صحيحاً نجحت في الامتحان وانفتح في وجهك باب الرقي والكمال في المستقبل. وإن كان جوابك غير صحيح أخفقت في الامتحان وانسد باب الرقي في وجهك، فهكذا قد متع الله الإنسان بالحرية في امتحانه له، وخيره بما يشاء من طريق للسير في حياته.

فرجل لا يعرف فطرة نفسه ولا فطرة هذا الكون، ويخطئ في معرفة خالقه وما له من الصفات، ويختار طريق المعصية والبغي، ولا يحسن الانتفاع بما أوتي من الحرية في إرادته، فهو مخفق إخفاقاً مبيناً، في امتحان علمه وعقله، وقوة تمييزه بين الخير والشر، وشعوره بالواجب، وشاهد على نفسه أنه رجل من أسفل السافلين من كل وجهة، وينبغي أن يكون مآل أمره كما عرفت آنفاً.

ورجل آخر قد نجح في هذا الامتحان : أعمل فكره، واستفاد مما أوتي من العلم والعقل استفادة صحيحة، فعرف خالقه وآمن به، رغم كونه غير مكره على ذلك. وكذلك ما أخطأ في التمييز بين الخير والشر، واختار الخير باستقلال رأيه، مع أنه ما كان في وجهه شيء يدرؤه عن الميل إلى الشر لو أراده. وتفطن لفطرته، وعرف ربه، وآثر طاعته على كونه مخيراً بين الطاعة والمعصية، فأي شيء أنجحه في هذا الامتحان وأبلغه مرامه ؟.. ذلك أنه أحسن استعمال عقله، والاستفادة من عينيه وأذنيه ودماغه، وقضى من سويداء قلبه ألا يتبع من الأقوال والأعمال إلا الصحيح، وكذلك جاء ببرهان على كونه عارفاً للحق بمعرفته إياه، وعلى كونه متبعاً له بالاستسلام له فعلاً.

أي عجب إذا حظي بالنجاح في الدنيا والآخرة رجل قد تحلى بمثل هذه الصفات العالية ؟ فهو لا يختار في ميدان العلم والعمل إلا طريقاً صحيحاً مستقيماً، لأن الذي عرف ربّه، وعرف صفاته، قد عرف مبدأ العلم ومنتهاه، لا يمكن أن يتخبط مثل هذا الرجل في الطريق الملتوية المضلة في حياته، لأن أول خطوة خطاها، إنما خطاها على علم وبصيرة، ولن تخفى عليه غايته التي يريد الوصول إليها، فتراه ينظر في ملكوت السماوات والأرض، ويحاول معرفة أسرار الكون بالطرق الفلسفية، ولكنه لا يضل في ظلمات الشك والارتياب، ويستخدم العلوم التجريبية (Science) في معرفة قوانين الطبيعة، واستخراج ما في الكون من الخزائن الخافية، وكشف ما أودع الله تعالى من القوى في هذه الدنيا وفي الناس أنفسهم، واختراع أحسن الطرق للانتفاع بما في السماوات والأرض، يقوم بكل ذلك، ويستقدح فيه قوّته الفكرية والعملية، ولكن تقواه لله تعالى، وخشيته للقيام بين يديه يوم القيامة، تحجزانه عند كل خطوة عن سوء استعمال هذه العلوم، ولن تسول له نفسه أبداً، في أي مرحلة من مراحل سيره، أنه مالك لهذه الأشياء ؛ أو أنه قد انتصر على الطبيعة، فيمكنه ويجوز له أن يستخدم هذه العلوم في منفعته الذاتية، وفي تسخير الدنيا، وتدويخ بلادها، وفي قذف الرعب في قلوب الناس بإهلاك الحرث والنسل وسفك الدماء. فما كل ذلك الفساد إلا عمل عالم (Scientist) كافر. أما العالم المسلم، فكلما ازداد انتصاراً على العلوم التجريبية، ومهارة فيها، ومعرفة بأسرار السماوات والأرض، ازداد إيماناً بالله، وإيقاناً بتوحيده، وشكراً لنعمته، واعتقاداً أن ربه ما مكنه من أسباب هذا الكون إلا ليكون خادماً لعباده، ويسعى فيما يعود بالخير عليه وعلى الناس أجمعين، فإن ذلك هو الشكر الحقيقي لله تعالى على ما أولاه من النعم.

وكذلك لا يتخلف المسلم عن الكافر في تحقيقه واجتهاده في التاريخ والاقتصاد والسياسة والقانون وما إليها من العلوم والفنون الأخرى، ولكن شتان ما بين نظريهما، يدرس المسلم كل علم من هذه العلوم بنظر صائب، ولغاية صالحة، وينتهي به تحقيقه إلى نتيجة سليمة.. ففي التاريخ يتعظ بتجارب البشر الماضية، ويستقرئ الأسباب الحقيقية لرقي الأمم وانحطاطها، ويجتهد في معرفة ما كان نافعاً صحيحاً في حضارتها وثقافاتها،

ويستفيد من أحوال رجالها الصالحين في أعمالهم وأقوالهم. ويتجنب كل ما أهلك هذه الأمم وقطع دابرها من أسباب السوء والضعف.

وفي الاقتصاد يختار لاكتساب الثروة وإنفاقها طرقاً لا يقتصر نفعها على بعض البشر دون بعض. بل يشمل نفعها جميع أهل الأرض.

وفي السياسة يكون همه كله منصرفاً إلى أن تسود الأرض مبادئ الأمن والسلام والعدل والخير والشرف والمروءة. فلا يستبد برقاب الناس ولا يستذلهم، ولا يستبعدهم فرد من الأفراد أو جماعة من الجماعات. وإلى أن تعتبر السلطة وأدوات الحجم والسيادة وديعة من الله تستعمل في إسعاد عباد الله وفلاحهم أجمعين.

وفي القانون تكون وجهة نظره أن يقرر لجميع البشر حقوقهم وواجباهم على غاية من العدل والأمانة ولا يظلم أحد من أي وجه من الوجوه.

والصدق والأمانة والعفاف وخشية الله واتباع الحق، كل أولئك مزاج أخلاق المسلم. فهو لا يعيش في الدنيا إلا وهو يعلم أن الله تعالى هو رب هذا الكون، ومالك كل ما فيه من شيء، وأن كل ما عنده وعند الناس، هو من عند الله، وأنه لا يملك شيئاً حتى نفسه وقواه الجسمانية، وأن كل شيء عنده أمانة من الله لا يحل له أن يتصرف فيها إلا حسب مرضاته تعالى وأن الله سيسترد منه هذه الأمانة ويحاسبه عليها حساباً دقيقاً في يوم لا ريب فيه.

فارجع إلى نفسك وتفكر قليلاً في أخلاق مثل هذا الرجل الذي يطهر قلبه من الظنون الباطلة، وذهنه من الهم بالسوء، ويغض من طرفه عن النظرة الخاطئة، ويصم سمعه عن الفاحشة، ويحفظ لسانه عن النطق بشيء يخالف الحق، ويؤثر أن يموت جوعاً على أن يملأ بطنه برزق حرام، ولا يبسط يده بالظلم والاعتداء على حق غيره، ولا يطأ بقدمه طريق السيئة، ولا يطأطئ رأسه أمام الباطل ولو صلب وقطع جسده تقطيعاً، ولا يحقق أملاً من آماله ولا حاجة من حاجاته عن طريق الشر والظلم والعدوان، وأعز شيء عنده هو الحق والصدق والأمانة لا يضن في سبيلها بشيء من نفسه أو ماله، وأبغض شيء في نظره هو الظلم والكذب والخيانة، لا يرضى بانتصارها واختيار سبيلها خوفاً على نفسه من مضرة أو رجاء في منفعة.

فمثل هذا الرجل هو الذي يفوز بفلاح الدنيا أيضاً.

نعم ! ليس في الدنيا رجل أكثر منه عزاً وشرفاً وفضيلة ورفعة، لأن رأسه لا يتطأطأ، ويده لا تمتد أمام أحد غير الله، فأنى للذل والهوان أن تدركه أسبابهما.

وليس في الدنيا رجل أكثر منه قوة وإقداماً وجرأة، لأنه لا يخاف غير الله ولا يعلق رجاءه بسواه، فأي قوة تقتدر أن تنكبه صراط الحق، وأي ثروة تقدر أن تشتري متاع إيمانه ؟.

وليس في الدنيا رجل أغنى منه وأكثر ثراء، لأنهليس بكلب الدنيا ولا بحريص على حطامها الفاني، ولا بمتبع لشهواته النفسية، وهو يقتنع بما يكسبه بسعيه المشروع، ولا يمد عينه إلى ثروة محرمة، ويرفضها بكل احتقار واستخفاف ولو حشدت إليه منها القناطير المقنطرة.. هذه هي ثروة القناعة والطمأنينة، ولا يمكن أن تكون في الدنيا ثروة أغلى منها قيمة.

وليس في الدنيا رجل أحب منه إلى قلوب الناس، وأعز في نظرهم، لأنه يؤدي إلى كل منهم حقوقه كاملة، ولا يبخس منها شيئاً، ويحسن إليهم، ولا يسيء إلى أحد منهم، ويسعى في سعادتهم، ولا يبتغي منهم جزاءاً ولا شكوراً.. كل ذلك مما يجذب إليه قلوب الناس، ويضطر كلاً منهم إلى حبه واحترامه وإجلاله.

وليس في الدنيا رجل يحوز في نفسه ثقة الناس واعتمادهم أكثر منه، لأنه لا يخون أماناتهم ويعاملهم دائماً بالصدق والحسنى، ويوفي لهم كل ما يعاهدهم عليه. ولا يبتغي عن الصدق والأمانة بدلاً، في أي شيء من شؤونه، موقناً من نفسه أن الله ينظر إليه، حتى في أحواله التي لا يراه فيها أحد في هذه الدنيا. فلا تسل عن مبلغ حب الناس له، واعتمادهم عليه، ورجوعهم إليه في كل أمر من أمورهم.

إذا عرفت كل هذا عن سيرة المسلم وأخلاقه في الدنيا، استيقنت نفسك أنه من المستحيل أن يعيش المسلم في الدنيا ذليلاً مهاناً مغلوباً على أمره، بل لا بد أن يكون في حياته، عزيز الجانب رفيع الرأس، لأن الصفات التي يحليه بها الإسلام، لا يمكن أن تغلبها قوة من قوى الدنيا أبداً.

هذا ما للعبد المسلم في حياته الدنيا، أما في الآخرة، فسيتغمده الله برضوانه، ويدخله جنات تجري من تحتها الأنهار، وله فيها كل ما تشتهيه نفسه، جزاء على أدائه حق الأمانة، ونجاحه في امتحانه في الدنيا وذلك هو الفوز المبين الأبدي، يتمتع به العبد المسلم في الدنيا والآخرة.

هذا هو الإسلام، دين الإنسان المفطور عليه. وهو لا يختص بأمة دون أمة، ولا بقطر دون قطر، ولا بزمن دون زمن. كان يدين به كل من عرف الله، واتبع قانونه، وسلك صراطه المستقيم، في أي زمن أو أمة أو قطر، سواء أسمى دينه بالإسلام أم بغيره من الألفاظ بلسان قومه.

الفصل الثاني

الإيْمَان مفصَلاً

حاجة الإنسان إلى العلم واليقين للطاعة :

قد عرفت أن الإسلام، هو طاعة الله تعالى، والانقياد لأحكامه وأوامره. ونريد أن نبين لك الآن، أن الإنسان لا يستطيع أن يطيع الله، ويتبع قانونه، ويسلك سبيله إلا إذا علم عدة أمور، وبلغ علمه بها مبلغ اليقين.

إن أول ما يجب على الإنسان بهذا الصدد أن يكون موقناً من قلبه بوجود الله تعالى، فإنه إذا لم يكن موقناً بوجوده، فكيف يطيعه ويتبع قانونه ؟.

وكذلك يجب عليه أن يعرف صفات الله تعالى، فإنه إذا لم يعرف أن الله واحد لا شريك له في ألوهيته، فكيف يرتدع عن طأطأة رأسه ومد يده أمام غير الله ؟ وكذلك إذا لم يكن موقناً بأن الله سميع عليم بصير بكل شيء، فكيف يمسك نفسه عن معصيته والخروج على أمره ؟ فيتضح من كل ذلك، أن الإنسان لا يمكنه أن يتحلى بالصفات اللازمة التي يجب عليه أن يتحلى بها، في أفكاره، وأعماله، وأخلاقه، لسلوك صراط الله المستقيم، ما دام لا يعرف صفات الله تعالى، ولا يحيط بها علماً صحيحاً كاملاً. ولا يكفي أن يكون هذا العلم علماً فحسب، بل ينبغي أن يكون متمكناً من أعماق قلبه، ليأمن قلبه من الظنون الخاطئة، وحياته من العمل بما يخالف عمله.

ثم يجب على الإنسان، أن يعرف ما هو الطريق الصحيح لقضاء الحياة في هذه الدنيا، وفقاً لمرضاة الله تعالى، وأي شيء يحبه الله تعالى كي يختاره، وأي شيء يبغضه كي يبتعد عنه. ولا بد — لهذا الغرض — أن يكون الإنسان على معرفة بقانون الله، وأن يكون موقناً بكون هذا القانون من عند الله تعالى، وبأنه لن ينال وجه ربه، حتى يكون متبعاً هذا القانون اتباعاً كاملاً في حياته ؛ فإنه إذا لم يعرف هذا القانون أصلاً فكيف يتبعه في حياته ؟ وأنه إذا لم يكن عمله بهذا القانون قد بلغ درجة اليقين، أو إذا كان يحسب في نفسه، أنه من الممكن أن يكون في الدنيا قانون آخر مثل هذا القانون في صحته وسداده. فكيف يواظب على اتباعه مواظبة صحيحة ؟.

ثم على الإنسان أن يكن على علم من مآل أمره إذا اختار معصية الله تعالى على طاعته، و لم يسلك صراطه المستقيم أو إذا واظب على طاعته واتبع قانونه في حياته، ولهذا الغرض لا بد أن يكون موقناً بالحياة الآخرة، وبقيامه بين يدي الرب تعالى يوم القيامة، ومجازاته له على أعماله، إن خيراً فخير وإن شراً فشر. والذي لا علم له بالحياة الآخرة، سواء في نظره الطاعة والمعصية لا فرق بينهما، ولا يكاد يميز بين نتائجها المختلفة، ويظن أن الذي يطيع الله والذي يعصيه سواء مصيرهما بعد الممات، فكيف يرجى من مثل هذا

الرجل أن يكف نفسه عن اقتراف الذنوب ما دام لا يخاف مضرها على نفسه في حياته الدنيا، أو يصبر نفسه على طاعة الله وشدائدها ومقتضياها ؟ لا يمكن أن يواظب على طاعة الله تعالى واتباع قانونه رجل على علم بالحياة الآخرة وقيامه بين يدي الله تعالى يوم القيامة، ولكن علمه هذا لم يبلغ درجة اليقين، فإن الإنسان لا يكاد يثبت على شيء بالشك والتردد، وإنما يمكنه أن يواظب على أمر، ويثبت نفسه على طاعته إذا كان على يقين تام من نفعه لنفسه، وكذلك لا يستطيع أن يبعد نفسه عن أمر، إلا أن يكون موقناً بمضرته لنفسه.

يظهر هذا كله، أنك إذا أردت أن تسلك طريقاً من الطرق، فلا بد لك أن تكون على معرفة من نتيجته وغايته التي ينتهي بك إليها. وينبغي أن تكون معرفتك هذه بالغة درجة اليقين والوثوق.

معنى الإيمان :

فالذي عبرنا عنه آنفاً بالعلم والمعرفة واليقين هو " الإيمان " وذلك هو معنى كلمة الإيمان بعينه. فكل من عرف توحيد الله. وصفاته الحقيقية، وقانونه، ومجازاته لعباده على أعمالهم يوم القيامة، ثم كان موقناً بكل ذلك من قرارة نفسه، هو " المؤمن ". ومن نتائج الإيمان أن يكون الإنسان مسلماً، أي مطيعاً لله ومتبعاً لقانونه.

ولعلك قد عرفت من هذا بنفسك أن الإنسان لا يمكن أن يكون مسلماً إلا إذا كان مؤمناً. فصلة الإيمان بالإسلام كصلة البذرة بالشجرة، فإنه لا تنبت الشجرة إلا بالبذرة، وإن كان من الممكن أن يلقى البذر في الأرض فلا تنبت الشجرة، أو تنبت ولكن بشيء من النقص، إما لكون الأرض مجدبة، أو لشيء من الفساد في الجو. فكذلك لا يمكن أن يكون الإنسان مسلماً إذا لم يكن في قلبه، وإن كان من الممكن أن يكون الإيمان في قلبه ثم لا يكون إسلامه كاملاً، إما لضعف في عزمه، أو لنقص في تعليمه وتربيته، أو تأثير بيته.

فإذا عرفت هذا، فاعلم أن الإنسان على أربع درجات باعتبار هذين الأصلين : الإيمان والإسلام.

١- الذين يؤمنون بالله إيماناً يجعلهم مطيعين له، متبعين لأحكامه اتباعاً كاملاً، يحذرون ما قد نهى عنه، كما يحذر الإنسان الإمساك بجمرة متقدة من النار في يده، ويسارعون إلى العمل بما فيه رضاه، كما يسارع الإنسان إلى كسب الأموال فهؤلاء هم المؤمنون حقاً.

٢- الذين يؤمنون بالله، ولكن لا يجعلهم إيمانهم مطيعين له، متبعين لأحكامه اتباعاً كاملاً. فهؤلاء وإن كان إيمانهم لم يبلغ درجة الكمال، ولكنهم مسلمون على كل حال،

يعاقبون بقدر معصيتهم، كأنهم بمنزلة المجرمين، وليسوا بمنزلة البغاة المتمردين، لأنهم يعترفون للملك بملكه ويخضعون لقانونه.

٣- الذين لا يؤمنون بالله، ولكنك تراهم ظاهراً يأتون بأعمال تشابه أعمال المسلمين، فهم البغاة في حقيقة الأمر، وأما أعمالهم التي تراها صالحة في الظاهر، فليست بطاعة الله ، ولا اتباعاً لقانونه، فلا عبرة بها. ومثلهم كمثل رجل لا يعترف للملك بملكه، ولا يخضع لقانونه، فإذا صدرت عنه بعض أعمال لا تخالف قانون الملك لا يحكم عليه بكونه وفياً للملك ومطيعاً لقانونه، بل هو عاص لأمره خارج على قانونه.

٤- الذين لا يؤمنون بالله، فهم ياتون أيضاً بأعمال سيئة مخالفة لأحكامه وقانونه، فهم شر الناس. بغاة مفسدون بآن.

فالظاهر من هذه القسمة أن الإيمان هو الذي ينحصر فيه نجاح الإنسان، وسعادته في الدنيا والآخرة، ولا يتولد الإسلام – كاملاً أو ناقصاً – إلا من بذر الإيمان. فحيث لا يكون الإيمان يكون الكفر، والكفر هو ضد الإسلام، أي الخروج على أمر الله تعالى باختلاف درجاته.

وسيلة الحصول على العلم واليقين :

قد عرفت أنه لا بد من الإيمان للطاعة، ولعلك تسائلني الآن : فما هي الوسيلة إلى الحصول على العلم الصحيح، واليقين المحكم، بصفات الله تعالى وقانونه المرضي والحياة الآخرة ؟

قد بينا لك في ما سلف، أن آثار رحمة الله ومعالم بديع صنعه منبثة في كل ناحية من نواحي هذا الكون، وهي تشهد بلسان حالها، أنه لم يعن بإيجاد هذا الكون إلا إله واحد، وهو الذي يسير ويدبر شؤونه، وكذلك تتجلى لكل من ينتظر في هذه الآثار، صفات الله تعالى كلها، بأتم مظاهرها، فأي صفة من صفات الحكمة، والعلم، والإبداع، والعفو، والكرم، والرحمة، والربوبية، والقهر، والغلبة، وما إليها من صفاته تعالى، لا تلوح من أعماله وبدائع صنعه في هذا الكون ولكن الإنسان قد أخطأ عقله وكفاءته عامة، في مشاهدة هذه الآثار والتأمل في حقيقتها. وهذه الآثار ماثلة أمام عين الإنسان، ولكن على رغم شهادتها بتوحيد الله تبارك وتعالى في جميع صفاته، فقد قال بعض الناس، إن الإله إلهان ! وقال بعضهم : إن لهذا الكون ثلاثة آلهة ! واتخذ بعضهم لنفسه آلهة لا تحصى ! ووزع بعضهم الألوهية بين آلهة متعددة، فقال : للمطر إله وللنار إله... وجعل لكل قوة من قوى هذا الكون إلهاً خاصاً بها. ثم جعل على رأس الجميع إلهاً أكبر، يلجؤون إليه ويقتدون بأمره ! وهكذا خبط العقل البشري في إدراك ذات الله تعالى ومعرفة صفاته خبط عشواء ليس هذا بمقام تفصيله.

وكذلك جاء مختلف الناس بظنون خاطئة، وأفكار كاذبة عن الحياة الآخرة، فمنهم من قال : إن هي إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين، ومنهم من قال : إن الإنسان تتكـــرر حياته وموته مرة بعد مرة في هذه الدنيا، ولا ينال جزاء أعماله إلا فيها...

أما القانون الذي يجب على الإنسان أن يواظب عليه، لقضاء حياته حسب مرضاة الله تعالى، فأنى للإنسان أن يضعه بنفسه، أو يدركه بعقله إذا كان لم يستطع أن يعــرف ذات الله تعالى وصفاته بنفسه !...

ومهما كان عقل الإنسان ناضجاً، وكان حائزاً على أعلـــى درجـــة في الكفـــاءة العلمية، فإنه لا يستطيع أن يرى في هذه الأمور رأياً أو ما يشبه الرأي، إلا بعـــد تجـــارب سنين عديدة، وتأمل طويل، بل أنه لا يمكن أن يكون واثقاً من نفسه حتى بعد كل ذلك، ولا أن يدعي أنه قد عرف الحق وأحاط به علماً تاماً. ولا شـــك أن الطريـــق المعـــروف لاختبار عقل الإنسان وعلمه، أن يترك وشأنه بدون أي هداية من فوقه، ليقـــرع جـــده، وينشد الحق والصدق لنفسه بنفسه، فيكون النجاح حظ من ساعده ســـعيه وكفاءتـــه، والخسران نصيب من فاته سعيه وكفاءته. ولكن الله عزّ وجلّ أراد بعباده الرحمـــة، ومـــا ابتلاهم بمثل هذا الاختبار العسير، فبعث إليهم من أنفسهم رجالاً، وهـــب لهـــم علمـــاً صحيحاً بصفاته، وعلمهم الطريق الذي يمكن أن يقضي به الإنسان حياته في الدنيا وفقـــاً لمرضاة ربه. وكذلك أعطاهم العلم الصحيح بالحياة الآخرة وأمرهم أن يبلغوا علمه الناس جميعاً. فهؤلاء هم رسل الله وأنبياؤه، والطريق الذي نالوا به هذا العلم من الله تعالى هـــو الوحي، والكتاب الذي فيه هذا العلم يقال له : كتاب الله أو كلامه. فـــلا اختيـــار الآن لعقل الإنسان وكفاءته، إلا من حيث إيمانه بالرسول أو كفرانه بعد النظر إلى حياته الطيبة وهدايته السامية، فمن كان مستعداً لمعرفة الحق واتباعه، صدق بالحسنى، وآمن بمن جـــاء بها، ونجح في اختباره. وأما من كذب بالحسنى واستغنى عمن جاء بها، فقد أضـــاع مـــن نفسه أهلية معرفة الحق والصدق وقبولهما، وذلك ما جعله يخيب في اختباره. وصده عـــن تلقي العلم الصحيح بالله وقانونه والحياة الآخرة.

الإيمان بالغيب :

إنك إذا كنت لا تعرف شيئاً، تبحث عن رجل يعرفه، ثم تعمل بقوله وتنزله علـــى رأيه. فإذا مرضت مثلاً فإنك لا تعالج نفسك بنفسك بل تراجع الطبيب، فإن كان هـــذا الطبيب محنكاً في فنه، حائزاً فيها شهادة عالية، ورأيته قد شفي على يده كثير من النـــاس، آمنت أن لديه الكفاءة التي يحتاج إليها علاجك. فبناء على هذا الإيمـــان، لا تتنـــاول إلا الدواء الذي يصفه لك هذا الطبيب، وتجتنب كل ما ينهاك عنه. وكذلك تؤمن بالمحـــامي وتطيعه في أمر القانون، وتؤمن بالأستاذ في أمر التعليم وتصدق كل ما يبينه لك. وكذلك عندما تريد التوجه إلى مكان لا تعرف الطريق الموصل إليه، تؤمن بمن يعرفـــه، وتـــصدق

بقوله، وتسك الطريق الذي يبينه لك. وهكذا شأنك في كل أمر من أمور الدنيا... فذلك هو الإيمان بالغيب.

فالإيمان بالغيب معناه أن ترجع في معرفة ما لا تعرفه إلى من يعرفه، ثم تصدقه في قوله، إنك لا تعرف ذات الله تعالى ولا صفاته، ولا تعلم أن ملائكته يسيرون شؤون الكون بأمره، ويحيطون بالناس من كل جهة. ولا تعرف ما هو الطريق الصحيح لقضاء الحياة وفقاً لمرضاته تعالى، ولا علم لك بالحياة الآخرة وما يحصل فيها للعباد، فجميع هذه الأمور وأمثالها إنما تنال علمها عن رجل تطمئن إلى صدقه وعفافه وتقواه في جميع شؤون حياته، وتختبره في أعماله التريهة وأقواله الحكيمة، فتسلم بأنه لا يقول إلا الحق، وأن جميع أقواله جديرة بأن تقبلها وتؤمن بها. فهذا هو إيمانك بالغيب، ولا بد لك منه إن أردت طاعة الله تعالى، والعمل بما يحبه ويرضاه، فإنه لا يمكن أن تتلقى العلم الصحيح بهذه الأمور إلا بواسطة الرسول ولا يمكن أن تهتدي إلى صراط الإسلام المستقيم وتسلكه بدون هذا العلم الصحيح.

الفصل الثالث

النُبوة

إنك قد عرفت من الفصل السابق ثلاثة أمور :

أولاً : أن الإنسان محتاج إلى العلم الصحيح بذات الله تعالى، وصفاته وطرقه المرضية، وحساب الآخرة ومجازاتها لطاعة الله وامتثال أوامره وأحكامه، وأنه ينبغي أن يكون علمه هذا قد بلغ من قوته وإتقانه درجة اليقين والوثوق.

ثانياً : أن الله تعالى، ما كلف عباده أن ينالوا هذا العلم بكدهم، بل قد اصطفى منهم رجالاً — وهم أنبياؤه — وأعطاهم هذا العلم وأمرهم أن يبلغوه سائر عباده في الأرض.

ثالثاً : أنه ليس على الناس الآن إلا أن يعرفوا أنبياء الله الصادقين، وأنهم إذا علموا من رجل أنه نبي الله إليهم، فعليهم أن يؤمنوا به، ويسمعوا له، ويطيعوه في قوله، ويذعنوا لأمره. ويحتذوا على مثاله في كل شأن من شؤون حياتهم.

ونريد أن نبين لك الآن ما هي حقيقة النبوة وما هو الطريق إلى معرفة الأنبياء.

حقيقة النبوة :

إن الله تعالى قد خلق في هذا الكون كل شيء يحتاج إليه الإنسان. فهو مزود منذ ولادته بالعينين للنظر، والأذنين للسماع، والأنف للتنفس والشم، والقوة اللامسة في الجلد للحس، والقدمين للمشي، واليدين للعمل، والذهن للفكر. وما إليها من الأعضاء المتعددة الأخرى التي يشتمل عليها جسده الصغير، زوده الله تعالى بكل ذلك نظراً إلى مختلف حاجاته. ثم عندما يدخل في هذه الدنيا ويبدأ فيها حياته، يجد أمامه من أسباب العيش ومرافق الحياة ما لا يدركه الإحصاء، فهناك الهواء والماء والنور والحرارة، واللبن في ثدي الأم، والحب في قلوب الأبوين والأقارب وغيرهم. ثم على قدر نموه وترعرعه، تزداد أسباب قضاء حاجاته في الدنيا، كأنه لم يخلق كل ما في السماوات والأرض من القوى العديدة إلا لإنمائه والقيام بخدمته وحده.

ثم تقدم إلى الأمام خطوة أخرى، تجد أن الله تعالى وهب للإنسان كل ما يحتاج إليه من المواهب والكفاءات والقوى، للعمل في هذه الدنيا، فكل فرد من أفراد البشر يحوز في نفسه قليلاً أو كثيراً من القوة الجسدية والعقل. وقوة الفهم والفطنة والنطق، ولله في خلقه شؤون لا يحمد عليها إلا هو، فإنه ما ساوى جميع أفراد البشر في قسمة هذه المواهب والكفاءات بينهم، ولو أنه ساواهم جميعاً في قسمتها بينهم، لاستغنى كل منهم عن أخيه ولم يحفل به أصلاً، ولأجل ذلك فقد قدر الله تعالى ما يحتاج إليه النوع البشري — من

حيث مجموعه — من المواهب والكفاءات، ثم وزعها بين مختلف أفــراده، حيــث جعــل نصيب هذا من إحدى الكفاءات ما لم يجعل نصيب ذلك. وجعل نصيب ذاك من كفــاءة أخرى ما لم يجعل نصيب هذا. ومن ثم ترى أن بعض الناس يفوق غيره في القوة الجسدية. وبعضهم عنده من المهارة في فن من الفنون أو حرفة من الحرف، ما ليس عنــد غــيره، وبعضهم فيه من الذكاء والعقل وقوة الفهم ما ليس في غيره، وبعضهم يميل إلى العسكرية ميلاً فطرياً، وبعضهم يولد على كفاءة خاصة في الحكم والسيادة، وبعضهم يولد على قوة غير عادية في الخطابة، وبعضهم فيه من الملكة الإنشائية ما ليس في غيره، وبعضهم يكــون ثاقب الفكر متقد الذهن في فن الرياضيات فيحل بكل سهولة كثيراً من الأشياء وغرائبــها ويدهش العالم بمخترعاته، وبعضهم يكون ذهنه حاذقاً نافذاً في القانون، وسرعان ما ينفذ نظره إلى كثير من نكاته التي لا ينفذ إليها نظر غيره إلى عدة أعوام. فكل ذلك من فــضل الله يؤتيه من يشاء من عباده. ولا يقدر رجل أن يوجد في نفسه هذه الكفاءات بنفــسه، ولا يمكن أن تتأتى هي في نفسه بالتعليم والتربية، وإنما هي مواهب فطرية يختص بهــا الله تعالى بحكمته من يشاء من عباده.

وإذا نظرت في وجود مختلف الكفاءات والمواهب في مختلف أفراد البشر، علمت أن لله تعالى حكمة بالغة في هذا الباب، حيث قد جعل فيهم كل كفاءة وموهبة علــى قــدر حاجة النوع البشري إليها. فجعل رجال الجند، وكذلك المتعــاطين للزراعــة والنجــارة والحدادة والحياكة، وما إليها من المهن الأخرى بحيث لا يكــاد يحــصى عــددهم. أمــا أصحاب القوى العلمية والفكرية، ومواهب السياسة والقيادة، فعددهم أقل مــن عــدد أولئك، وأقل عدداً من الجميع أولئك الذي لهم كعب بالغ ومهارة فذة في فن خاص مــن الفنون. ذلك لأن أعمالهم تغني البشر إلى قرون وأجيال، عن أمثالهم من الحذاق في هــذا الفن.

ولكن هل يكفي لحاجة النوع البشري وسعادة حياته في الدنيا، أن يوجد في الناس الماهرون في فنون الهندسة والرياضيات والكيمياء والقانون والسياسة والاقتصاد وغيرها من الفنون الأخرى ؟ كلا ! بل الذي حاجته إليه أشد وآكد من حاجته إلى هــذه الفنــون كلها، هو أن يكون في الناس من يأخذ بيده ويرشده إلى صراط الله المستقيم. نعم، إن كل عالم من علماء هذه الفنون، يرشده إلى أن يعرف ما له في هذه الدنيا. وما هــو الطريــق لاستخدامه، ولكن حاجته أشد وآكد إلى من يبين له " من هو مالكه، ومــن ذا الــذي وهب له ما في السماوات والأرض، وما هي مرضاة هذا الواهب "، حتى ينــال الفــوز الأبدي اليقيني بقضاء حياته وفقها. ومما يأباه العقل الإنساني، أن يكون الله تعالى، الــذي خلق للإنسان كل صغير وكبير يمكن أن تمسه الحاجة إليه في هذه الدنيا، قد غفــل عــن حاجة الإنسان هذه و لم يكترث لها أصلاً، وهي أكبر حاجات الإنسان وأقــدمها كمــا عرفت. نعم ! لا يمكن ذلك أبداً، بل الله قد خلق في الناس رجالاً كانوا علــى اســتعداد

عظيم لمعرفته بانفسهم، فأعطاهم من عنده علم الدين والأخلاق والــشريعة، وكلفهــم تعليمها سائر العباد في هذه الدنيا، فهؤلاء الرجال هم الذين نسميهم رسل الله وأنبيــاءه صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

معرفة النبي :

كما أن البارعين في جميع العلوم الفنون، يولدون على قريحة خاصة، وطبيعة غــير عادية، يمتازون بها عن غيرهم، كذلك يولد الأنبياء على طبيعة خاصة يمتازون بهــا عمــن سواهم.

ويتبين لك الشاعر المطبوع بمجرد سماعك لكلامه، وتعرف أنه قد ولد مزوداً بملكة خاصة في الشعر، لأن غيره لا يأتي بمثل شعره ولو بذل أتم جهده، وكذلك تعرف الخطيب المطبوع، والكاتب المطبوع، والمخترع المطبوع، والقائد المطبوع بأعمالهم. فإن كل واحد منهم ياتي في أعماله بقريحة فذة، لا عهد للناس بها في غيره. وكذلك تلقى في روع الــنبي وتجول في ذهنه أفكار مبتكرة لا تخطر ببال أحد من البشر، وهويعرض على الناس ويشرح لهم من المسائل والموضوعات ما لا يستطيع أن يبينه لهم غيره، وينفذ نظره إلى أمور دقيقة لا يهتدي إليها نظر سائر الناس ولا يفهمونها، رغم بذلهم كل جهودهم أعواماً وســنين، يقبل العقل السليم كل ما يقول وتشهد القلوب بصدق بيانه، وكذلك تــصدقه تجــارب الدنيا ومشاهد الكون في كل قول من أقواله، ولكن إذا أراد أمرؤ أن يأتي بمثل شيء مــن أقواله فلن يستطيع أبداً، ويكون النبي طاهر الفطرة، نقي السجية، لا يسلك في كل شــأن من شؤونه إلا طريق الصدق والعفاف والشرف، ولا يأتي في أقواله أو أعماله بــشيء لا يلائم الحق والصواب، يهدي إلى الرشد، ويسابق غيره إلى العمل بما يأمر به النــاس، ولا يكاد يوجد مثال واحد في حياته على مناقضة عمله لقوله. وهو يتحمل المضرة في ســبيل مصالح غيره، ولا يضرهم في سبيل مصلحة نفسه، وحياته كلها صدق وأمانــة وشــرف وصفاء سريرة، وفكرة عالية، ومروءة سامية، لا أثر فيها لعيب أو نقيصة، ويــشهد كــل ذلك شهادة ناطقة بأن هذا نبي الله الصادق أرسل إلى الناس لهدايتهم.

طاعة النبي :

إذا عرفت من رجل أنه نبي صادق من عند الله تعالى، فعليك أن تطيعه في كل مــا يأمر به أو ينهى عنه، فإنه مما يأباه العقل البشري العام، أن تسلم لإنــسان بنبوتــه ثم لا تطيعه، فإنه لا معنى لتسليمك بنبوته إلا أنك قد آمنت أنه لا ينطق عن الهوى، ولا يقــول شيئاً إلا من عند الله، ولا يأتي بعمل إلا حسب مرضاته تعالى، فكل ما تقول أو تعمل الآن خلافاً لهذا النبي، فإنما تقوله وتعمله خلافاً لله تعالى نفسه، وكل ما يكون خلافاً لله تعالى، لا يمكن أن يكون حقاً أبداً. فالذي يستلزمه إيمانك بالنبي، أن تطيعه طاعة تامة بــدون أي

اعتراض او توقف. في كل ما يأمرك به وينهاك عنه، سواء أفهمت ما في أمره ونهيه من الحكمة والفائدة أم لم تفهم، فإن مجرد كونه من عند الله، هو أكبر شهادة بصدقه وتضمنه لجميع الحكم والفوائد. وإذا كنت لا تفهم حكمة من حكمه، أو فائدة من فوائده، فما ذلك لعيب في صميمه، وإنما ذلك لشيء من الفساد أو القصور في قوة فهمك أنت. ومن الظاهر أن رجلاً غير ماهر في فن من الفنون لا يكاد يفهم دقائقه أو يحيط به علماً، يكون بالغ السفه إذا ردّ على الماهر قولاً من أقواله، لمجرد أنه لا يكاد يفهمه أو يفطن لما فيه من الحكمة والفائدة. وكل أمر من أمور الدنيا مفتقر إلى رجل حاذق فيه، محيط بدقائقه، وعندما يجد الناس مثل ذلك الرجل الحاذق، يرجعون إليه، ويصدقونه، ويعتمدون عليه، ولا يعترضون على ما يقول، ولا يتدخلون في أعماله، لأنه لا يمكن أن يكون جميع الناس ماهرين في جميع العلوم والفنون قادرين على فهم أمور الدنيا كلها، فالذي يجب أن تقصر عليه قوة عقلك وفهمك هو البحث عن رجل ماهر، فإذا وجدته وآمنت بمهارته فعليك أن تثق به كل الثقة ولا تتعرض لشيء من أعماله بالاعتراض والإصرار على رأيك، ومن السفاهة أن تقول له : لا أصدقك ولا أؤمن بمهارتك إلا إذا جعلتني على علم بما في عملك هذا، وهذا من الحكمة والفائدة، ألا تكل أمرك إلى المحامي عندما تعرض لك قضية في المحكمة ؟ وقل لي ألا يطردك هذا المحامي من مكتبه إذا تعرضت لأعماله بمثل هذا التدخل ؟ وكذلك قل لي ألا يكف الطبيب عن علاجك إذا طلبت منه الدليل على صحة كل وصفة من وصفاته ؟ فهكذا أمر الدين بعينه. إنك محتاج إلى علم الله وإلى أن تعرف الطريق الصحيح لقضاء حياتك وفقاً لمرضاته، ولكن لا سبيل لك إلى الحصول على هذا العلم ومعرفة هذا الطريق بنفسك، فمن واجبك إذن، أن تبحث عن نبي الله الصادق، وتعمل في البحث عنه، كل ما أعطاك الله من قوة العقل والبصيرة والفهم والفطنة فإنك إذا اتخذت نبيك رجلاً لم يبعثه الله تعالى، أضلك عن سبيل الحق، وسلك بك طرقاً معوجة، ولكن إذا أيقنت – بعد البحث والتنقيب والاختبار – أن رجلاً ما، نبي مرسل من عند الله تعالى، فعليك أن تعتمد عليه كل الاعتماد، وتطيعه طاعة كاملة في كل شيء يأمرك به أو ينهاك عنه.

الحاجة إلى الإيمان بالأنبياء :

إذا عرفت أن طريق الإسلام المستقيم هو الذي يرشد إليه النبي بأمر ربه، علمت أن البشر جميعاً محتاجون إلى الإيمان بالنبي واتباعه وامتثال أمره، وأن الذي يخالف النبي، ويعرض عن طاعته، ويبتدع طريقاً بنفسه، هو الضال من غير شك.

والناس يأتون في هذا الباب بعجائب، فمنهم الذين يعترفون بصدق النبي ولكن لا يؤمنون به ولا يطيعونه، فما أولئك بالكافرين فحسب، بل هم سفهاء أيضاً، فإنه لا معنى

لتصديق النبي والاعتراف بكونه من عند الله تعالى، ثم الإعراض عن طاعته، إلا إيثار الباطل على الحق، واشتراء الضلالة بالهدى عمداً، ومن الواضح ألا حماقة أفظع من هذه الحماقة.

ومنهم الذين يقولون لسنا بحاجة إلى اتباع الرسول، لأن لنا عقلاً يمكن أن يرشدنا إلى الصراط المستقيم، فهذا أيضاً خطأ عظيم، وضلال بعيد. قد تعلمت علم الرياضيات وتعرف أن الخط المستقيم الواصل بين نقطتين لا يكون إلا واحداً، وأن كل خط دونه إما غير مستقيم، أو غير واصل بين النقطتين. فهكذا لا يمكن أن يكون طريق الحق — المصطلح عليه في الإسلام بالصراط المستقيم — الذي يصل بين العبد وربه، إلا واحداً، بحكم قاعدة الرياضيات هذه. فكل طريق غير هذا الطريق. إما غير مستقيم، أو غير موصل العبد إلى ربه.

وتقدم خطوة أخرى، قد عرفت أن الطريق الموصل إلى الله واحد، وهو الذي هدى إليه نبيه، فكل من رغب عن هذا الطريق، وأجهد نفسه في البحث عن طريق غيره، لا يعدو أمره أن يكون على إحدى صورتين :

إما ألا يجد طريقاً موصلاً إلى الله أصلاً، أو يجد طريقاً طويلاً منحنياً. ففي الصورة الأولى لا شك في هلاكه، وأما الصورة الأخرى فلا شك أيضاً في كونها حماقة وضلالة على الأقل. ألا ترى أن حيواناً أعجم إذا أراد الوصول إلى مكان خاص. اختار لسيره إليه خطاً مستقيماً ؟ فما ظنك إذن بإنسان وهب له الله عقلاً، وأرسل إليه عبداً من عباده يدعوه إلى ربه، ويهديه سبيل الرشد والخير، ولكنه يقول له كلا ! إني لن أتبعك، ولن أسلك الطريق الذي ترشدني إليه، بل سأبذل جهدي بنفسي، وأهيم على وجهي في سبل مظلمة ملتوية حتى أنال غايتي !

وهذا شيء يدركه كل إنسان بأدنى تأمل. بل إنك إذا أعملت فكرك قليلاً، تبين لك أن الذي يأبى أن يؤمن بالرسول، لا يمكن أن يجد للوصول إلى الله تعالى طريقاً مستقيماً ولا غير مستقيم. لأنه لا بد أن يكون قد أصيب في عقله بشيء يمنعه عن قبول الحق : فإما أن يكون ناقص الفهم، أو أن يكون رجلاً متكبراً. في طبيعته شيء من الاعوجاج لا يرضى معه بقبول الحق. أو يكون مغرقاً في التقليد الأعمى لآبائه، ولا يرضى أن يسمع قولاً يفند شيئاً من الأفكار والرسوم التي ورثها عنهم، أو يكون عبداً قد اتخذ إلهه هواه، ولا يجد من نفسه ميلاً إلى قبول تعليم الرسول، لأنه يرى أنه إذا قبله، فلن يجد لنفسه مجالاً إلى ارتكاب المعاصي والمنكرات التي اعتاد اقترافها في حياته. وكل من وجد فيه سبب من هذه الأسباب، لا يمكن أن يهتدي إلى سبيل الله، ومن كان بريئاً من هذه الأسباب، فمن المستحيل أن يعرض عن طاعة الرسول الصادق والاستسلام لتعليمه.

والذي يجب ألا تغفل عنه بهذا الصدد، أن النبي إنما يبعثه الله تعالى، وهو الذي يأمر الناس بالإيمان به واتباع تعليمه. فكأن الذي لا يؤمن بالنبي ويتمرد عن طاعته، يخرج على الله تعالى نفسه. وذلك أنه لا بد لك من طاعة حاكم يولى عليك من قبل الدولة التي أنت

من رعيتها، فإن أبيت أن تسلم به حاكماً على نفسك، فكأنك خرجت علــى الدولــة نفسها، إن استسلامك للدولة وإعراضك عن حاكم توليه عليك، نقيضان لا يجتمعــان. وهذا مثل ما بين الله وبين النبي المبعوث من عنده. إن الله هو الملك الحقيقي للناس جميعاً، فكل من أرسله إليهم هادياً مرشداً وأمرهم باتباعه، فعليهم أن يؤمنوا به ويؤثروه بالطاعة على أي شيء آخر، والذي يعرض عن طاعته، هو كافر، سواء أكان يــؤمن بــالله أم لا يؤمن.

موجز تاريخ النبوة :

هذا، ونريد أن نبين لك الآن، كيف بدأت في النوع البشري سلسلة بعث الأنبيــاء وترقت، حتى انتهت بنبوة نبي جليل، هو سيد سائر الأنبياء وخاتمهم.

مما لا يخفى عليك، أن الله تعالى إنما خلق في بدء الأمر نفساً واحدة، ومنها خلــق زوجها، ثم بث منهما جميع من نراهم اليوم يقطنون في مختلف أرجاء الأرض ونواحيهــا. متوزعين إلى مختلف الشعوب والأمم. وقد اتفقت روايات جميع الأمم الدينية والتاريخيــة على أن النوع البشري إنما بدأت سلسلته من نفس واحدة بعينــها. وكــذلك لم تثبــت تحقيقات العلوم التجريبية (Science) أنه كان في مختلف مناطق الأرض وأرجائها أفــراد مختلفون، تفرعت منهم هذه السلالات والأمم المتعددة المنتشرة في الأرض اليوم، بل الذي يستنتجه أكثر علماء هذه العلوم قياساً، هو أن يكون قد خلق في أول الأمر إنسان واحد، ومن هذا الإنسان نفسه انتشرت هذه السلالات الإنسانية الموجودة الآن.

هذه النفس الواحدة التي بدأت منها السلالة البشرية إنما هي آدم في لغتنا، ومنــها اشتقت كلمة " الآدمي " التي معناها الإنسان. فآدم # . هو الذي اصطفاه الله وجعلــه أول رسول في الأرض، وأمره أن يعلم ذريته الإسلام، أي أن يبين لهم أن ليس لكــم ولا لسائر هذا الكون إلا إله واحد، فلا تعبدوا ولا تستعينوا إلا إياه، ولا تسجدوا إلا له، ولا تقضوا أيام حياتكم إلا وفقاً لمرضاته عادلين صالحين، فإن فعلتم جزاكم المحسنين الأبــرار، وإن أعرضتم عن طاعته جزاكم جزاء السيئين الأشرار.

أما الصالحون من ذرية آدم، فاتبعوا أباهم، واستمسكوا بما هداهم إليه من الحبــل المتين والصراط المستقيم، وأما الظالمون، فأبوا أن يتقيدوا بطاعته، واتبعوا أهواءهم، حــتى نشأت فيهم السيئات والنكرات من كل نوع شيئاً فشيئاً، فمنهم من أخذ يعبد الــشمس والقمر والنجوم، ومنهم من اتخذ إلهه شجرة من الأشجار، أو حجراً من الأحجار، أو نهراً من الأنهار، أو حيواناً من الحيوانات، ومنهم من ظن أن لكل من المــاء والنــار والمــرض والصحة وما إليها من قوى الطبيعة ونعمها الأخرى إلهاً خاصاً به، فعلى الإنسان أن يعبــد جميع هؤلاء الآلهة ويسعى لإرضائهم حتى تشتمله جميعاً بفضلها وأنعامها وهكذا ولــدت الجهالة غير واحدة من صور الشرك وعبادة الأصنام والأوثان، وتفرعت منــها ديانــات

متعددة في الأرض، وقد حدث كل ذلك عندما انتشرت ذرية آدم في مختلف أرجاء الأرض ونواحيها، وتوزعوا إلى مختلف الشعوب والأمم، فجعلت كل أمة لنفسها ديانة خاصة بها، لها طائفة من الرسوم والشعائر لم تكن لغيرها. وجملة القول أن الناس لما نسوا الله ربهم، نسوا دينهم الذي جاءهم به وأرشدهم إليه أبوهم آدم # ، واتبعوا أهواءهم، وتسربت إليهم الرسوم والتقاليد السيئة من كل نوع. وتفشت بينهم الأفكار الباطلة والآراء، الجاهلية، وأخطأوا في تمييزهم بين النافع والضار والحق والباطل، ولذلك أخذ الله تعالى يبعث رسله وأنبياءه في كل أمة، يعلمون الناس ويوضحون لهم نفس الذي كان قد جاء به — من قبل — آدم # ، ويذكرونهم بما نسوه من قبل، ويرشدونهم إلى عبادة الإله الواحد، وينهونهم عن الشرك وعبادة الأصنام والأوثان، ويقمعون ما راج فيهم من التقاليد الفاسدة والرسوم الباطلة، ويهدونهم إلى الطريق المرضي عند الله لقضاء حياتهم، ويبينون لهم القوانين الصحيحة ويأمرونهم باتباعها. وما من قطر من أقطار الأرض، من الهند أو الصين أو فارس أو العراق أو مصر أو أفريقيه او أوروبة إلا خلت فيه رسل الله وأنبياؤه — وما كان هؤلاء الأنبياء جميعاً إلا على دين واحد هو الذي نسميه اليوم " الإسلام " (١) غير أنه كان هناك فرق يسير بين طرق مختلف الأنبياء في الإرشاد وقوانينهم للحياة، وذلك أن كل نبي قصر جهده في استئصال ذلك النوع الخاص من الجهالة، الذي كان منتشراً في قومه، وإصلاح تلك الأفكار الباطلة، التي كانت راسخة فيهم خاصة، وحينما كانت هذه الأمم في مرحلتها الأولى من حيث الحضارة والتمدن والعلم والعقل، فقد جاءها أنبياؤها بتعاليم وشرائع بسيطة، وكلما ارتقت من هذه الوجوه، وسع لها في نطاق تعاليمها وشرائعها ومناهجها. ثم لم يكن هذا الاختلاف إلا في الظاهر فقط، فإن الروح الذي يسري في جميع هذه الشرائع والتعاليم واحد، وهو توحيد الإله في العقيدة، والصدق والإخلاص في العمل، والإيمان بالحياة الآخرة.

وعجيب جداً ما عامل به الناس هؤلاء الرسل والأنبياء، فقد آذوهم واستكبروا عن طاعتهم، فقتلوا بعضاً منهم، وأخرجوا بعضاً من ديارهم، حتى لم يؤمن بفريق من هؤلاء الأنبياء بعد ما أفنوا أعمارهم في الدعوة إلا بضعة نفر فقط. لكن عباد الله المصطفين هؤلاء، ما وهنوا ولا استكانوا في جهودهم، حتى أثرت دعوتهم واتبعهم كبار أمم الأرض. وهنا هنا اختارت الضلالة قالباً جديداً لنفسها فبدلت الأمم تعاليم الأنبياء بعد وفاتهم، وأدخلت في كتبهم ظنوناً كاذبة واخترعت للعبادة طرقاً جديدة من عند نفسها. فمن

(١) من سوء الفهم الذي نرى عامة الناس، بل كثيراً من أهل العلم منهم، متورطين فيه، أن الإسلام كان بدؤه من نبوة محمد صلى الله عليه وسلم، وهذا خطأ فاحش ينبغي أن يكون ذهن الطالب سالماً منه كل السلامة. وليعلم كل طالب، أن الإسلام هو الدين الحقيقي الوحيد للنوع البشري منذ أول أمره. وكل رسول من رسل الله في أي زمان ومكان إنما جاء بهذا الدين نفسه.

الناس من بدأ يعبد الأنبياء أنفسهم، ومنهم من قال إن الله نزل إلى الأرض بصورة نبيـــه، ومنهم من جعل نبيه ابن الله، ومنهم من أشرك نبيه بالله في ألوهيته. وهكذا عبث البشر في مختلف الأزمان وسائر الأقطار بتعاليم الأنبياء بعد وفاقم : جعلوا أصناماً وتماثيـــل للـــذين كسروها من قبل، وعكفوا عليها، ومسخوا تعاليم الأنبياء وشرائعهم ومزجوها بأنواع من البدع والرسوم الجاهلية والتقاليد الكاذبة والأقاصيص الملفقة. وخلطوها بما وضعه الإنسان من القوانين من تلقاء نفسه، حتى لم تبق للإنسان بعد عدة قرون وسيلة يميز بهـــا هدايـــة الرسل وشريعتهم الأصلية، مما خلطها به من جاء بعدهم من أتباعهم (٢). وكذلك غابت في ثنايا الروايات الملفقة أحوال الأنبياء وسيرهم الحقيقية، حتى ما بقي عند النـــاس شـــيء يعتمد عليه ويوثق به. غير أن جهود الأنبياء ومساعيهم ما ذهبت كلها سدى، فقد بقـــي جزء من الصدق والحق في كل أمة، على الرغم من مسخها لتعاليم نبيها، ومزجها إياها بما شاءت. فقد انتشرت العقيدة بالله والحياة الأخرة في جميع الأمم بأية صورة من الـــصور، وسلمت الدنيا عامة بمجموعة من مبادئ الصلاح والصدق والأخلاق، وربى كل نبي أمته وهيأها لقبول الحق، حتى أصبح من الممكن أن يعم الأرض كلها من أقصاها إلى أقـــصاها دين واحد بعينه. ويكون هو الدين الوحيد للإنسانية، جمعاء، من غير ما فرق بين مختلـــف أممها.

وهكذا بينا لك من قبل، أنه ما كان يرسل إلى كل أمة إلا رسل مختصون بها، وفيها كانت تنحصر دعوتهم. ذلك بأن الأمم في تلك الأزمنة كانت متباينة، غير مختلطة فيمـــا بينها، وكانت كل أمة متقيدة بحدود أرضها، فكان من الصعب في مثل تلك الأحوال، أن ينتشر في جميع أمم الأرض، وشعوبها، تعليم مشترك شامل موحّـــد، زد علـــى ذلـــك أن أحوال كل أمة كانت مختلفة عن أحوال غيرها، وكان الجهل مطبقاً أرجاء الأرض كلها، فكانت المفاسد التي تتولد من جراء هذا الجهل في الاعتقاد والأخلاق، تختلـــف صـــورها باختلاف الأماكن والأزمان. فمن أجل ذلك لم يكن بد أن يأتي إلى كل أمة مـــن أمـــم الأرض، رسول يهتم بتعليمها وإرشادها إلى الحق خاصة، ويقضي على أوهامها الخاطئـــة، وينشر فيها — مكانها — الأفكار الصحيحة شيئاً فشيئاً، ويصدها عـــن الطـــرق الباطلـــة ويهديها إلى اتباع القوانين العادلة العالية، ويربي أفرادها كما تربي الأم أطفالها الصغار. ولا يعلم إلا الله كم مضى من ألوف السنين في تربية أمم الأرض بهذه الطريقة، حتى جاء على الإنسانية حين من الدهر، اجتازت فيه أيام صباها، وبدأت تبلغ أشدها، وارتبطت كـــثير

---

(٢) هكذا يا أخي الطالب بدلت الأمم الماضية دينها الحقيقي — أي الإسلام — واخترعت من تلقـــاء نفسها ما تجد اليوم في الدنيا من مختلف الديانات المسماة بمختلف الأسماء، فما جاء السيد المسيح مثلاً إلا بالدين الإسلامي الحقيقي، ولكن الذين جاؤوا بعده الهوه ومزجوا تعليمه النقي الصافي بما شاؤوا من الأباطيل من عند أنفسهم وأخرجوا للناس ديناً جديداً سموه " بالمسيحية ".

من العلاقات مع الرقي الصناعي والتجاري بين مختلف عناصرها، وأصبح الناس يسافرون من بلاد اليابان والصين إلى بلاد أوروبة وأفريقية البعيدة بالطرق البحرية والبرية، وراجت الكتابة في معظم أمم الأرض، وانتشرت فيها العلوم والفنون، وتبودلت بينهما النظريات والأفكار والموضوعات العلمية، ونبغ فيها من الفاتحين وأولي البأس من دوخوا البلاد المجاورة، وأنشأوا في الأرض ممالك عظيمة، تشتمل على غير واحد من الأقطار، ويسكنها غير واحدة من الأمم، وهكذا اجتمعت غير أمة واحدة تحت نظام سياسي واحد، وبدأ يتبدد ما كان من قبل من التباعد وعدم التعارف، وأصبح من الممكن أن يترل تعليم الإسلام الوحيد وشريعته الوحيدة للأرض قاطبة. ولو رجعت إلى ما قبل نحو ألفي سنة ونيف من تاريخ لإنسان لوجدته يتطلب بلسان حاله ديناً كاملاً يكون دين البشرية جمعاء. فالديانة البوذية، لم تكن ديناً كاملاً، وإنما كانت مشتملة على مبادئ خلقية، ولكنها انتشرت مع كل ذلك في بلاد الصين واليابان ومنغوليا في جانب، وفي أفغانستان وبخارى في الجانب الآخر، ثم جاءت الديانة المسيحية بعدها بقرون، ولا شك أن السيد المسيح كان قد جاء بتعليم الإسلام الخالص، ولكن الذين جاؤوا من بعده مزجوا هذا الدين بما شاؤوا من عند أنفسهم، حتى لم يعد إلا ديانة ناقصة سموها بالمسيحية. ومع ذلك انتشرت المسيحية في فارس وأفريقية وأوروبة. مما يدل على أن الدنيا كانت متعطشة في ذلك الزمان إلى دين عالمي كامل حتى إذا لم تجده، اقتنعت بديانات ناقصة وآمنت بها وأخذت تنتشر فيها.

نبوة محمد بن عبد الله ﷺ :

في هذا الزمان الذي وصفناه، بعث للدنيا ولجميع أمم الأرض وشعوبها، رسول واحد، هو سيدنا ومولانا محمد ﷺ في بلاد العرب، ووكل إليه أن يبلغ العالمين جميعاً، ما أوتي من الهدى ودين الحق والقانون الشامل.

وإذا نظرت نظرة في جغرافية العالم، علمت أن بلاد العرب هي أنسب أرض للرسالة العالمية، فهي بين آسية وأفريقية وأقرب ما تكون لأوروبة، ولا سيما بالنسبة لذلك الزمان الذي كانت فيه أمم أوروبة الراقية المتمدنة تسكن في الأقسام الجنوبية منها، وبعدها عن بلاد العرب يعدل بعد الهند عن هذه البلاد.

ثم إذا قرأت ما قالت كتب التاريخ عن ذلك الزمان، عرفت أنه ما كانت في الدنيا أمّة أنسب وأجدر بهذه الرسالة العالمية من الأمّة العربية. فقد أخذت أسباب الوهن والانحلال تدرك سائر الأمم الراقية والقوى العظيمة، بعد أن أقامت الدنيا وأقعدتها، بينما كانت الأمة العربية – إذ ذاك – موفورة الجأش حامية الدم. وكان نمو المدنية وارتقاء الحضارة وانتشار الترف في الأمم الأخرى قد أفسد عليها عاداتها وخصالها. أما الأمّة

العربية فما كانت إلى ذلك العهد على مدنية تجعلها ناعمة البال، مولعة بالبذخ والترف، مائلة إلى السفائل والرذائل، وكانت هذه الأمّة بمنجاة تامة في القرن السادس الميلادي، من الآثار السيئة المنتشرة في أمم الأرض المتمدنة الأخرى، وكان فيها من الصفات الإنسانية العالمية جميع ما يمكن أن يكون في أمّة لم تصدمها المدنية بعواصفها، وكان العرب شجعاناً مقاديم لا يقيمون وزناً للرهب والخوف، باسطي الأيدي، قائمين بالعهود، أحرار الفكر والنظر، يحبون الحرية والاستقلال، ويؤثرونهما على كل شيء آخر، ولم تكن أعناقهم خاضعة لأمّة أجنبية، وكانت عاطفة الاستماتة في الذود عن أعراضهم تجري في عروقهم. وكانوا يعيشون عيشة ساذجة لا تعرف الترف والتنعم. لا ريب أنه كانت فيهم كثير من السيئات والمنكرات، ولكن الحق أنه ما كان منشأ هذه السيئات إلا أنه ما خلا فيهم رسول من الله منذ ألفين وخمسمائة سنة (٣)، وما قام فيهم زعيم يزكيهم ويعنى بإصلاح أخلاقهم وتعليمهم المدنية والحضارة، وكانت الجاهلية منتشرة فيهم لما عاشوا عيشة الحرية في الصحراء قروناً من الزمان، وقد بلغ تماديهم في هذه الجاهلية أنه لم يكن لأحد قبل بتهذيبهم وإخراجهم من ظلمات البهيمية إلى نور الإنسانية.. ولكنهم كانوا مع كل ذلك أهلاً لأن يقيموا الدنيا ويقعدوها إذا عني بإصلاحهم وتعليمهم رجل عبقري وقاموا على أثر دعوته وتعليمه بغاية سامية ورسالة شريفة في الدنيا. فإلى مثل هذه الأمة الفتية الباسلة المقدامة، كانت تحتاج الرسالة العالمية لنشر كلمتها وتعميم دعوتها في سائر أرجاء الدنيا ونواحيها.

ثم أنظر نظرة في اللغة العربية، فإنك إذا قرأت هذه اللغة ودرست أدبها، ظهر لك من دون أدنى ارتياب، أنه لا يمكن أن تكون في الدنيا لغة أنسب من هذه اللغة لأداء الأفكار العالية، والإفصاح عن أدق معاني العلم الإلهي والتأثير في القلوب فبالجمل الصغيرة من هذه اللغة تؤدى الموضوعات المهمة، وتكون قوية التأثير في القلوب.. إلى مثل هذه اللغة كانت تحتاج معاني القرآن الكريم. فمن حكمة الله البالغة ورحمته الشملة بعباده إذن أن اختار أرض العرب على غيرها للنبوة العالمية. فتعال نبيّن لك ما جعل الشخص الذي اصطفاه الله تعالى لهذه النبوة منقطع المثال في هذه الدنيا.

ثبوت نبوة محمد ﷺ :

إرجع ببصرك إلى ما قبل ١٤٠٠ سنة من تاريخ هذه المعمورة تجد أنه لم يكن فيها البرق ولا الهاتف ولا القطار ولا السيارة ولا المطبعة، ولم تكن تصدر فيها الجرائد والمجلات ولا تنشر الكتب. ولم يكن يتيسر للناس من السهولة في أسفارهم ما نجده في

---

(٣) كان زمان إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام قبل نحو ٢٥٠٠ سنة من بعثة محمد صلى الله عليه وسلم. وما أرسل في العرب خلال هذه المدة الطويلة رسول من عند الله تعالى.

زماننا هذا، فكان كل من أراد أن يسافر من قطر إلى آخر، عليه أن يسير الأشهر الطوال، فكأن بلاد العرب كانت في مثل هذه الحال منقطعة عن سائر أقطار الدنيا. صحيح أنه كانت حولها بلاد الفرس والروم ومصر، ولكن الجبال المترامية الجوانب من الرمال كانت تفصل جزيرة العرب عن هذه البلاد جميعاً.

نعم كان تجار العرب يرحلون للتجارة إلى هذه البلاد على ظهور جمالهم ويصرفون في قطع الطريق إليها الأسابيع والأشهر ولكن ما كانت تعدو غاية هذه الرحلات شراء البضائع وبيعها. أما أرض العرب نفسها، فما كان فيها مدنية راقية، ولا مدرسة ولا مكتبة، ولا انتشار للعلم والتعليم في الناس، والذين كانوا يعرفون منهم القراءة والكتابة، يعدون على الأنامل. ثم ما كانت معرفتهم بهما بحيث تعينهم على الإلمام بما كان خارج بلادهم من العلوم والفنون في ذلك الزمان، وما كانت فيهم حكومة تهتم بجمع كلمتهم ولا قانون يأمرهم وينهاهم، بل كانت كل قبيلة فيهم مستقلة بنفسها وكانوا يسلبون الناس وينهبونهم بكل حرية، ويسفكون الدماء في الحروب الأهلية الدامية المستمرة، وكانوا لا يقيمون وزناً للنفس البشرية، فكل من يشاء يقتل من يشاء كلما وجد إلى قتله سبيلاً، ويستولي على ماله، وما كانت عليهم مسحة من الحضارة، وكانت الفواحش والمنكرات والخمر والميسر نافقة السوق فيهم، وكانوا يتعرون فيما بينهم من غير كلفة ولا حياء، حتى أن نساءهم كن يطفن بالبيت الحرام عاريات. وما كانوا يعرفون الحلال من الحرام. وقد كانت الحرية بلغت بهم مبلغاً جعلهم لا يتقيدون بقاعدة ولا قانون ولا وازع خلقي، ويأبون الطاعة والانقياد لحاكم من الحكام. زد على ذلك أن الجهالة كانت قد تأصلت فيهم جذورها، وكانوا يعبدون الأنام ويسجدون لها، فإذا سافروا ونزلوا منزلاً وجدوا فيه حجراً جميلاً اتخذوه رباً لأنفسهم وقضوا حاجتهم من العبادة بالسجود له، أي أن الأعناق التي أبت أن تخضع لأحد كانت تخضع للأحجار والأصنام وتظن أن هذه الأحجار هي التي تقضي لهم حاجاتهم، وتحقق آمالهم وأمانيهم.

في مثل هؤلاء القوم وفي مثل هذه الأحوال ولد مولود مات عنه أبوه قبل أن يولد، ثم ماتت عنه أمه وجده في أيام صباه، فما تلقى من التربية ما عسى أن يتلقاه حتى في هذه البيئة المتداعية لو كان أبواه وجدّه أحياء. فلما نشأ وجد نفسه يرعى الغنم مع أترابه من أبناء العرب. ولما شبّ اشتغل بالتجارة وما كانت مجالسته ومعاشرته ومخالطته إلا لأولئك العرب أنفسهم الذين سلف القول فيما كانوا عليه من الأحوال. وكان أمياً لا يعرف القراءة والكتابة... ولكن عاداته وأخلاقه وخصاله وأفكاره كانت مختلفة كل الاختلاف عن عادات قومه، وأخلاقهم وخصالهم وأفكارهم. فما كان يكذب في حديثه، ولا يؤذي أحداً بيده أو لسانه، وكان لين الجانب خفيف الظل عذب الكلام يحبه ويفديه كل من جالسه مرة، وما كان ليأخذ من أحد شيئاً ولو كان حقيراً بطريق غير حسن، وكان من الأمانة والصدق والعفاف على حظ كبير، جعل كثيراً من أبناء قومه يأمنونه على أموالهم

الثمينة، ويودعونه إياها، وهو يحافظ عليهم كما يحافظ على نفسه وماله. والناس كلهم يعتمدون عليه، ويثقون بأمانته، مما جعلونه يلقبونه بالأمين. وكان حيياً لم يظهر لأحد بدنه عرياناً، بعدما بلغ سن الشعور. وكان مهذباً ينفر من الشر والرذيلة، على الرغم من كونه قد نشأ وعاشر طول حياته رجال الشر والرذيلة. وكان نظيفاً نزيهاً في كل عمل من أعماله، وكان طاهر القلب، يتألم عندما يرى قومه ينهبون ويسفكون الدماء، وكان يسعى لإصلاح ذات بينهم كلما حمي بينهم وطيس الحروب والمعارك. وكان رؤوفاً رحيماً لين الجانب يشاطرهم فيما يترل بهم من المصائب، وينصر الأيتام والأيامى، ويطعم الجياع، ويضيف أبناء السبيل، ويكرم مثواهم ويتحمل لهم الشدائد والخسائر. وكان ذكي الفؤاد ثاقب القريحة، يعاف عبادة الأوثان والأصنام على معاشرته لقوم كانت الوثنية فطرهم الثانية، ودينهم الذي ورثوه عن آبائهم كابراً عن كابر، وما كان ليطأطئ رأسه لأحد من الخلق كأن قلبه يحدثه أن كل شيء في الأرض أو السماء لا يستحق العبادة. وأن الله واحد ليس له شريك، ولا يمكن أن يكون له شريك. فكان هذا الرجل يتلألأ بين هؤلاء القوم الجاهلين كما تتلألأ الجوهرة الكريمة بين الأحجار الكثيرة أو كما يتلألأ السراج في ظلمة الليل.

وبعد أن عاش في قومه عيشة نظيفة رفيعة، وبلغ أربعين سنة، ضاق ذرعاً بهذا الظلام المطبق على مجتمعه من كل جانب، وأراد لنفسه النجاة من هذا البحر الخضم من الجهل والفوضى، والانحلال الخلقي والعملي، والشرك والوثنية. فإنه ما كان يجد فيه شيئاً يلائم فطرته فبدأ يخرج من مكة، ويقضي أياماً طوالاً في عالم الوحدة والخلوة، يزكي روحه وقلبه بالتحنث (٤) والجوع، ويتأمل وينشد نوراً يقشع به الظلام المطبق على قومه، ويريد شيئاً يصلح به هذه الدنيا الملأى بأسباب الخبث والفساد والفوضى.

وهناك يحدث تغير في حاله، ويستنير قلبه فجأة بذلك النور الذي كانت تتشوق إليه فطرته، ويمتلئ بالقوة التي ما ظهرت فيه من قبل، فيخرج إلى قومه من خلوة الغار وينادي فيهم : إن هذه الأصنام التي تعبدونها وتعكفون عليها لا تضركم ولا تنفعكم فاتركوها، وإن هذه الأرض والشمس والقمر والنجوم وما في السماوات والأرض من القوى، ما خلقها إلا الله وحده، وهو خالقكم ورازقكم وهو الذي يميتكم ثم يحييكم. فلا تعبدوا غيره ولا تستعينوا إلا إياه، ولا تطلبوا قضاء حاجتكم إلا منه، ومن ثم ما تأتونه من أعمال السرقة والنهب والفاحشة وإدمان الخمر ولعب الميسر، فانتهوا عنها، واصدقوا في أقوالكم وأعمالكم، واعدلوا، ولا تقتلوا نفساً إلا بحق، ولا تسلبوا الناس أموالهم، ولا تأخذوا شيئاً ولا تعطوه إلا بالحق، وكلكم بشر والبشر كلهم سواء. وليس الشرف والفضل بالنسب ولا باللون والملبس ولا بالجاه والثروة وإنما هما بالتقوى والصلاح والخير. فن كان صالحاً

---

(٤) التحنّث : التعبد ليالي متعددة، وإعزال الأصنام.

يتقي الله وينهى نفسه عن السوء، فهو الشريف الكامل في إنسانيته، ومن لم يكن كذلك، فليس من الشرف والفضل في شيء ولا حظ له في لآخرة. وكلكم مجموعون إلى ربكم بعد حياتكم الدنيا ولا ينفعكم في محكمته العادلة شفاعة ولا خلة ولا رشوة، ولا تسألون عنده عن علو نسبكم وإنما ينفعكم فيها إيمانكم وأعمالكم الصالحة. فمن كان منكم مؤمنا قد عمل الصالحات دخل الجنة، ومن لم يكن عنده شيء منها، خسر خسراناً مبيناً وكان من أصحاب النار.

لكن قومه بدأوا يؤذونه، لا لشيء، إلا أنه يعيب عاداتهم ورسومهم الجاهلية التي ورثوها عن آبائهم، ويصد الناس عن عبادة الأوثان والأصنام ويدعوهم إلى الإسلام لله وحده، ولذلك آذوه وسبوه وأهانوه ورموه بالحجارة وضيقوا عليه الخناق وتآمروا على قتله، وما زالوا ينزلون به من أنواع الشدائد والآلام أشد ما كانوا يقدرون على إنزاله، حتى اضطر ﷺ بعد ثلاث عشرة سنة، إلى الهجرة من وطنه. ولكنهم ما شفوا غليل نفوسهم بعد ذلك كله، وما فتئوا يعملون على إيذائه وإزعاجه في المدينة التي التجأ إليها بعد مغادرة وطنه.

لماذا تحمّل هذا العبد الصالح كل هذه الشدائد والمصائب وصبر عليها من قومه ؟ ذلك لأنه أراد أن يرشدهم إلى صراط الحق المستقيم. وقد عرضوا عليه أن يملكوه على أنفسهم، أو يجمعوا له من أموالهم، حتى يكون أكثرهم ثراء على أن يقلع عما هو عليه من الدعوة إلى الله، ولكنه رفض كل ذلك رفضاً وأبى إلا الاستمرار في دعوته. فهل يمكن أن يكون في الدنيا رجل أكثر منه صلاحاً وصدقاً وإيثاراً ؟ إنه لا يتحمل كل هذه الشدائد والآلام في سبيل نفسه، ولكن لصالح غيره من عباد الله، وهم يرمونه بالحجارة ويغمزونه بأقبح الكلمات، ولكنه لا يدعو لهم إلا بالخير.

ثم تفكر قليلاً في ذلك التغيير العظيم الذي حدث فيه بعد خروجه من الغار : كان الكلام الذي يتلوه على الناس بالغاً من الفصاحة والبلاغة قمتها، حتى لم يأت بمثله أحد قبله ولا بعده. كان العرب كما لا يخفى عليك، يفتخرون بشعرهم وخطابتهم وفصاحتهم في الكلام، فتحداهم أن يأتوا بسورة من مثل هذا الكلام، فأعياهم وطأطأوا رؤوسهم عجزاً. والذي يدعو إلى العجب أكثر من ذلك أن اللسان الذي كان يستعمله ويتكلم به في أحاديثه للناس وفي خطبه ما كان يعادل لسان ذلك الكلام بلاغة وفصاحة. فإذا قارنت بين ذلك الكلام وبين خطبه وأحاديثه ومحاوراته للناس، تجلى لك الفرق واضحاً جلياً بينهما.

قد بدأ هذا الأمّيّ ﷺ الذي لم يولد ولم يقم طول حياته إلا في الصحراء بين الأميين، يأتي بحكم ومواعظ لم ينطق بها أحد قبله ولا استطاع أن ينطق بها أحد بعده. بل لم يسمعها الناس من لسانه نفسه قبل أن يبلغ أربعين سنة من عمره.

وكذلك وضع هذا – الأميّ ﷺ – قوانين في الأخلاق والاجتماع والسياسة وفي سائر الشؤون الإنسانية، لا يكاد يدرك حكمها وأسرارها فحول العلماء وكبار الحكماء على بعد نظرهم وتجارب حياتهم إلا بصعوبة عظيمة. بل ستظل تنكشف للدنيا في المستقبل من حكم هذه القوانين ومقاصدها، على قدر ما تزداد تجاربهم على مر الأيام، لقد وضع هذا الأمي قوانينه قبل أكثر من ثلاثة عشر قرناً، ولكننا لا نستطيع أن نجد فيها اليوم موضعاً واحداً يحتاج إلى التغيير وإعادة النظر، أو مادة واحدة يمكن حذفها أو إزالتها عن مكانها، مع أن القوانين الوضعية الأخرى وضعت مراراً وغُيِّر فيها مرارا.

وفي مدة ال ٢٣ سنة الوجيزة، صار كثير من أعدائه الذين وقفوا له بالمرصاد، وتآمروا على قتله، ولم يألوا جهداً في إيذائه، من أصدقائه المفدين له بالأرواح... وكل ذلك بفضل أخلاقه وشرفه ونبله وتعاليمه السامية فقد قامت في وجهه القوى العظيمة الجبارة، فانكسر أهلها وانقلبوا صاغرين أمامه، وعندما انتصر عليهم لم ينتقم من أحد، بل غمرهم بفضله وإكرامه وإنعامه. فقد غفر لمن قتلوا عمه وأخاه في الرضاعة حمزة بن عبد المطلب وبقروا بطنه ولاكوا كبده، وأسبغ كسوة الغفران والعفو الشامل على من رموه بالحجارة وأخرجوه من وطنه... وما كاد لأحد، ولا نقض عهده، ولا اعتدى عليه في حرب، وكان ذلك مما لا يجترئ لأجله حتى أعدى أعدائه أن يتهموه بالغدر والظلم ونقض العهد، وذلك هو الذي سحر له قلوب العرب جميعاً إلى أن أخرجهم – بتعليمه وهدايته – من دياجير الجهل والهمجية، وجعلهم أمة حائزة قصب السبق في النظام والتهذيب. والعرب الذين ما كانوا ليتقيدوا بقانون من القوانين، أخرج منهم أمة في غاية من التقيد بالنظام والقانون، لا يوجد لها نظير في تاريخ العالم. والذين ما كانوا ليرضوا بطاعة أحد والانقياد لأمره، جعلهم منقادين لدولة عظيمة مفدين لها بأرواحهم وأموالهم. والذين ما كانوا من الأخلاق والآداب في شيء، قد زكى آدابهم وهذب أخلاقهم، حتى أن الدنيا لا تكاد تقضي عجبها اليوم عندما تقرأ وقائعهم وأحوالهم في كتب التاريخ. والذين كانوا أحط أمم الأرض وأضعفها، نالوا في أنفسهم بفضل تأثير هذا الرجل، ودعوته خلال ٢٣ سنة، قوة سخرت لهم دول فارس والروم ومصر، وقاموا يعلمون الدنيا الشرف والمدنية والأخلاق والإنسانية، وانتشروا بتعليم الإسلام وشريعته في أنحاء آسية وأفريقية وأوروبة النائية.

تلك هي الآثار التي تركها الأمي ﷺ في نفوس العرب، أما ما فعله هذا التعليم في نفوس سائر أمم الأرض، فهو أكثر من هذا وأدعى إلى العجب، فقد أحدث ثورة عظيمة في أفكار سائر أهل الأرض وعاداته وقوانينهم. فإذ سرحت النظر في الذين أعرضوا عن اتباعه، وخالفوا عن أمره، وناصبوه العداء، فضلا عن الذين اتبعوه وجعلوا منه أسوة لأنفسهم، وجدتهم ما استطاعوا أن يمنعوا أنفسهم التأثر بتعليم هذا الأمي. كانت الدنيا قد

نسيت توحيد الله، فجاء هذا — الأمي صلى الله عليه وسلم، فذكرها به من جديد، حتى أن ديانات الوثنيين والمشركين لا تجد اليوم بداً من دعوى التوحيد لله تعالى. وكذلك كانت المبادئ التي لقنها الناس في الأخلاق والآداب بالغة القوة، حتى تأثرت ولا تزال تتأثر بها أخلاق سائر أمم الأرض وآدابها. وكذلك كانت المبادئ التي وضعها في القانون والسياسة والمدنية والاجتماع، من الصحة والصدق والاتقان بمكان جعل الأعداء والجاحدين بصدق كلامه يقتبسون ويسترقون منها، بل لا يزالون يقتبسون ويسترقون منها إلى اليوم.

هذا الرجل كما بينا لك من قبل، ما نشأ إلا مع الفطرة، في أمة عريقة في الجهل والهمجية، و لم يشتغل إلا برعي الغنم أو التجارة حتى بلغ أربعين سنة من عمره و لم يتلق أي نوع من التعليم والتربية، فكيف تجمعت فيه مظاهر الكمال هذه دفعة واحدة بعد بلوغه أربعين سنة من عمره ؟ ومن أين حصلت له هذه المعرفة والعلم ؟ ومن أين وجدت هذه القوة غير العادية ؟ فتراه قائداً منقطع المثال من قواد الجيش، وقاضياً ماهراً من القضاة، ومقنناً غير عادي من المقننين وفيلسوفاً نطاسياً من الفلاسفة، ومصلحاً مبتكراً من مصلحي الأخلاق والتمدن، وسياسياً محنكاً من رجال السياسة في حين واحد. ثم تراه يعبد ربه ساعات طوالاً في الليل، على كثرة ما عليه من الأشغال المهمة في النهار وكذلك تراه يؤدي ما عليه من الحقوق لأزواجه وأولاده وعشيرته، ويخدم الفقراء والمساكين، ويواسي المنكوبين واليتامى، ولا يعيش إلا عيشة الفقراء على ما نال من ملك عظيم : ينام على الحصير، ويكتسي الخشن ويطعم القديد، بل قد تمر عليه أيام لا يطعم فيها شيئاً.

فلو أنه قال للناس بعد هذه الأمور المدهشة : إني لست كمثلكم وأنا فوق النوع البشري، لما وسع أحداً من الناس أن يكذبه ويرد عليه دعواه. ولكنه لم يقل ذلك، و لم يدع أن هذه المواهب غير العادية من تلقاء نفسه، بل إنه قال دائماً، إنه ليس شيء من هذه المواهب من عند نفسي، وكل ما عندي من شيء فهو لله ومن الله، وإن هذا الكلام الذي جئتكم به، وقد عجز عن الإتيان بمثله الجن والإنس، ما هو من عند نفسي، ولا من بنات فكري ونتيجة قريحتي، بل هو كلام الله ولا يرجع الفضل فيه إلا إلى الله وحده، وكل ما آتي به من عمل، فليس من كفاءتي الشخصية، بل الله تعالى هو الذي وفقني له، وإني لا أعمل شيئاً ولا أقوله إلا حسب ما يأمرني به ربي. فقل لي بعد كل ذلك : ما لنا لا نؤمن بمثل هذا الرجل الصادق، ولا نسلم به نبياً مرسلاً من عند الله تعالى ؟ أنظر إلى مواهبه في جانب : ما أنجبت الإنسانية قبله ولا بعده رجلاً يماثله فيها، وإلى صدقه وأمانته بالجانب الآخر : لا يفتخر بما أتى به، ولا يكسب الثناء على نفسه بنسبته إلى نفسه، وإنما يعزوه إلى الله الذي أكرمه بها. فما لنا بعد ذلك ألاّ نصدقه فيما يقول ؟ وما لنا نكذبه عندما يقول : إن هذه الكفاءات ومظاهر الكمال كلها من عند الله، فنقول له : بل إنها مما اختلقته أنت ونبع من ذهنك وأفكارك !! إن هذا الرجل الصادق الأمين، أبى أن ينسب

إلى نفسه المحاسن التي كان من الممكن بكل سهولة أن ينسبها إلى نفسه، وما كان أحد غيره يعرف مصدرها، فلو أنه ادعى بناء عليها أن له شخصية فوق عامة البشر، لما استطاع أحد أن يفند دعواه، فمن أصدق من هذا الرجل وأكثر منه أمانة ونزاهة ؟!

إلا إن هذا الرجل الصادق هو سيدنا ومولانا محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم. وصدقه هو الدليل على نبوته. إن أعماله الجليلة وأخلاقه السامية، وما حدث في حياته الطيبة من الوقائع، كلها ثابتة في كتب التاريخ فيها، فكل من يقرأها بقلب سليم متحرياً الحق والصدق، يشهد له قلبه من غير ما شك أنه – ﷺ – نبي مرسل من عند الله تعالى. وأن الكلام الذي عرضه على قومه هو القرآن الكريم الذي نتلوه. فكل من يقرأه بقلب رحيب فاهماً معناه، لا بد له من الإقرار بأنه كتاب مترل من عند الله تعالى، وأنه لا قبل لأحد من البشر أن يأتي بمثله.

ختم النبوة :

هذا، وينبغي لك الآن أن تعرف أنه لا سبيل إلى معرفة الإسلام ومعرفة صراطه المستقيم غير تعليم النبي ﷺ والقرآن الكريم، ومحمد ﷺ نبي مرسل إلى النوع البشري كافة، وقد ختمت به سلسلة الوحي والنبوة والرسالة، والله تعالى قد أرسل بواسطته كل ما راد أن يرسله إلى الناس من الهداية والنور. فكل من كان طالباً للحق وأراد أن يكون عبداً مسلماً لله تعالى، فلا بد له من أن يؤمن بخاتم النبيين، ويذعن كل الإذعان لما جاء به من الهدى والبينات، ويتبع طريقه.

الدلائل على ختم النبوة :

إذا أدركت حقيقة النبوة، تبين لك أن الأنبياء لا يولدون كل يوم، وكذلك فليس من الضروري أن يكون لكل أمة نبي في كل حين من أحيانها، فإن حياة النبي حياة ما يأتي به من الهداية والتعليم. فهو حي ما دامت هدايته حية. قد مات الأنبياء الأقدمون، لأن الناس بدلوا تعاليمهم ومزجوها بما شاؤوا من أهوائهم، ولا يوجد اليوم كتاب من كتبهم في صورته الأصلية، ولا يكاد يدعي أتباعهم أن لديهم كتبهم في صورها الأصلية، وكذلك نسي الناس سيرة هؤلاء الأنبياء، ولا يكادوا يعثرون على أحوالهم الصحيحة المعتمد عليها، حتى أنه لا يمكن الجزم بزمانهم أو مكانهم الذي ولدوا فيه، وما جاؤوا به في حياتهم من الأعمال. وكذلك من المستحيل أن يعرف الناس اليوم، كيف قضى هؤلاء الأنبياء أيام حياتهم، وماذا أمروا به وماذا نهوا عنه، وذلك هو موتهم. أما نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، فلا يزال حياً لأن هدايته حية، ولا يزال بأيدينا ذلك القرآن الكريم الذي أنزله الله عليه بألفاظه الأصلية، وما دب دبيب التغير إلى حرف من أحرفه أو نقطة أو حركة من

حركاته، ولا تزال سيرته وأحواله حياته وجميع أعماله وأقواله ﷺ مدونــة محفوظــة في الكتب على ما مضى عليها من السنين الطوال، كأننا نشاهد اليوم شــخص الــنبي ﷺ بأعيينا. ونسمع كلامه بأسماعنا، وليس في الدنيا رجل قد حوفظ على وقائع حياته كمــا حوفظ على وقائع حياة النبي محمد صلى الله عليه وسلم، ومن الممكــن أن نقتــدي بــه ونتأسى بأسوته في كل شأن من شؤون حياتنا في كل حين من أحياننا. فذلك هو الــدليل على أن لا حاجة للبشر اليوم إلى نبي مرسل من عند الله تعالى بعد النبي محمد ﷺ :

ولا يرسل نبي بعد نبي إلا لأحد الأسباب الثلاثة الآتية :

١- أن يكون تعليم النبي المتقدم قد انمحى وظهرت الحاجة إلى عرضه على النــاس مرة أخرى.

٢- أو يكون تعليم النبي المتقدم غير كامل فهو بحاجة إلى إتمامه.

٣- أو أن يكون تعليم النبي المتقدم منحصراً في أمة خاصة وتكون أمة أخــرى أو سائر الأمم بحاجة إلى نبي مرسل مثله (٥).

وقد انعدم كل سبب من هذه الأسباب الثلاثة اليوم :

١- إن تعليم النبي محمد ﷺ حي، ولا يزال بأيدينا من الوسائل ما يمكن أن نعلم به في كل حين من الأحيان ما كان دينه صلى الله عليه وسلم، وأي هداية جاء بها من عنــد الله، وأي طريق للحياة روجه في الناس. وما هي السبل التي جاهد ليصد الناس عنها. فإذا كانت هدايته لا تزال حية في متناول الأيدي، فلا حاجة إلى نبي آخر يجددها ويعرضــها على الناس مرة أخرى.

٢- قد نالت الدنيا تعليم الإسلام الكامل بنبوة محمد صلى الله عليه وســلم. فــلا حاجة اليوم إلى أن يضاف إليه أو ينقص منه شيء، وأيضاً ليس فيه قصور ينبغي أن يــأتي لتلافيه نبي آخر بعده صلى الله عليه وسلم، فقد زال السبب الثاني أيضاً.

٣- كانت نبوة محمد ﷺ إلى العالمين جميعاً، وما كانت منحصرة في أمة دون أمــة أو زمن دون زمن، فلم يبق لأمة من الأمم حاجة إلى أن يرسل إليها نبي خاص بها من عند الله، فهكذا زال السبب الثالث أيضاً.

ولأجل كل ذلك قيل لمحمد ﷺ : خاتم النبيين، أي من جاء آخرهم.

فلا حاجة للدنيا اليوم إلى نبي آخر، وإنما هي بحاجة إلى رجال يتبعــون الــنبي ﷺ ويدعون الناس إلى اتباعه ويفهمون هديه صلى الله عليه وسلم، ويعملون به. ويقيمون في الأرض دولة ذلك القانون الذي جاء به محمد ﷺ من عند الله تعالى.

---

(٥) ويمكن أن يكون السبب الرابع أيضاً أن يرسل مع النبي نبي آخر لتأييده وتصديقه. ولكنا لم نذكره في هذا المقام، لأنه ما ورد له في القرآن إلا مثالان فقط، ولا يمكن أن يستنتج من هذين المثالين المستثنين أن الله يرسل الأنبياء ويرسل معهم أنبياء آخرين لتأييدهم وشد أزرهم على قاعدة مطردة عامة.

الفصل الرابع

الإيْمَان وَالطاعَة

يجدر بك أيها الطالب، قبل أن تتقدم، أن ترجع قليلاً وتستعرض مرة أخـرى مـا حصل لك من المعلومات في الفصول السابقة :

١ - لا شك أن الإسلام هو طاعة الله تعالى وامتثال أمره، ولكنه لم يكن هناك مـن سبيل إلى معرفة ذات الله تعالى وصفاته، والطريق الذي يرضاه من عباده لقضاء حيـاتهم، والكيفية الصحيحة لما يحصل لهم في الآخرة من ثواب أو عقاب على أعمالهم، إلا الـنبي المبعوث من عند الله تعالى، كان التعريف الصحيح لدين الإسلام " أن نؤمن بتعاليم الـنبي ونعبد الله وفقاً لهدايته ". فكل من أعرض عن هدي النبي و لم يتخذه وسيلة إلى معرفة الله ومعرفة قانونه فليس بمسلم، وإن ادعى أنه مطيع لله منقاد لقانونه.

٢ - لقد كان الأنبياء يأتون إلى مختلف أمم الأرض في الزمن الماضي كل نبي إلى أمة على حدة. وكان يبعث بعض الأحيان في أمة واحدة عدة أنبياء يأتي بعضهم تلو بعـض. فكان الإسلام اسماً لذلك الدين الذي كان يأتي به أي نبي من الأنبياء لأية أمة من الأمـم. والإسلام وإن ظل على حقيقة واحدة في كل زمان وفي كل أمة، ولكن كان هناك بعض الاختلاف في شرائع مختلف الأمم أي قوانينها وطرق عبادتها. فما كان على أمة أن تتبـع أمة غيرها، وإن كان عليها أن تؤمن بجميع أنبياء الله تعالى.

٣ - ولما بعث محمد ﷺ إلى الأرض، أكمل الله تعالى به تعاليم الإسلام، الذي أنزله إلى الناس جميعاً ليكون لهم شريعة واحدة بعينها. فما كانت رسالته ﷺ إلى أمة خاصة من الأمم، أو زمن معين من الأزمان، بل هي إلى الناس جميعاً أبد الدهر، وقد نسخ برسـالته جميع ما مضى قبله من مختلف شرائع الإسلام التي جاء بها مختلف الأنبياء إلى مختلف الأمم. فلن يأتي للناس نبي آخر ولا شريعة أخرى بعده ﷺ إلى يوم القيامة. وما الإسلام الآن إلا اتباع محمد صلى الله عليه وسلم، الذي لن يأتي بعده من عند الله رجل يجب الإيمان بـه، ويكون الإنسان كافراً إذا لم يؤمن به.

وتعال نبين لك الآن ما هي الأمور التي أمرنا النبي ﷺ أن نؤمن بها :

الإيمان بالله :

فأول وأهم ما أمر النبي ﷺ أن نؤمن به، هو " لا إله إلا الله ". وهذه الكلمة هـي التي يقوم عليها بناء الإسلام، وهي التي تميز المسلم من الكافر والمشرك والملحد، وهي التي تحدث الفرق العظيم بين الإنسان المؤمن بها والإنسان المعرض عنها. فالذين يؤمنـون بهـا

طائفة لهم الفلاح والسعادة والفوز والرقي في الدنيا والآخرة، والذين يعرضون عنها طائفة أخرى لهم الخسران والخزي والخذلان في الدنيا والآخرة.

ولا يأتي هذا الفرق العظيم بين الرجلين بمجرد نطق أحدهما بكلمة مؤلفة من اللام والألف والهاء وغيرها من الأحرف الأخرى بلسانه. فإنك إذا كنت مصاباً بالبرداء (الملاريا) مثلاً، فلن تشفى، بمجرد أن تنطق بلسانك : " كينا... كينا " ولو رددها ألف ألف مرة، دون أن تتناولها فعلاً، وكذلك لا تنفعك هذه الكلمة – لا إله إلا الله – إذا نطقت بها من غير أن تشعر بمعناها. أو تعرف ما أقررت به أو تتفطن إلى ما ألقيت على نفسك من المسؤولية العظمى بهذا الإقرار. الحق أن الفرق الحقيقي لا يحصل إلا إذا نزل معنى هذه الكلمة في سويداء قلبك، وأيقنت بصدقها كل الإيقان، ولا يكون اعتقادك بصدقها أقل رسوخاً من اعتقادك أن النار شيء محرق، أو أن السم شيء مهلك. أي أنه كما يحول إيمانك بخاصية النار بينك وبين أن تلقي فيها يدك، أو كما يمنعك ب " لا إله إلا الله "، بينك وبين أن تأتي بشيء صغير أو كبير من الشرك أو الكفر أو الإلحاد في العقيدة أو العمل.

معنى لا إله إلا الله :

وعليك أن تعرف الآن ما هو " الإله ". فمعناه لغة " المستحق للعبادة " أي من كان من حيث كبرياؤه وجلالة شأنه وعلو مترلته، جديراً بأن يعبده الناس، ويطأطئوا له رؤوسهم في العبادة، وكذلك يشمل معنى الإله " الحائز لقوة جبارة يتحير العقل الإنساني في إدراك مداها ". وكذلك يتضمن " من كان غير محتاج إلى أحد وكان الجميع محتاجين إليه مضطرين إلى استعانته في جميع شؤون حياتهم ". وكذلك يدخل في معنى إله : " من كان محتجباً عن الناس، أي كانت قواه غير مرئية " (٦) وكلمات " خدا " الفارسية و " ديوتا " بالهندية و God بالإنكليزية كلها مرادفات لهذه الكلمة – الإله – وكذلك توجد في لغات العالم الأخرى كلمات تشابه هذه الكلمة أيضاً.

وكلمة " الله " علم للحق تعالى، فمعنى " لا إله إلا الله " أنه ليس في هذا الكون أحد جدير بأن يعبده الناس، ويسجدوا له بالطاعة والعبادة، إلا الله تعالى. فما لهذا الكون من مالك ولا حاكم إلا هو وحده وكل شيء مفتقر إليه مضطر إلى استعانته، وهو وراء الحواس، ويتحير العقل الإنساني في إدراك ذاته.

حقيقة لا إله إلا الله :

هذا هو معنى " لا إله إلا الله " لغة. وتعال نبين لك حقيقة هذه الكلمة.

---

(٦) راجع كتاب " المصطلحات " الأربعة في القرآن للمؤلف.

إن كل ما بلغنا من أحوال الإنسان منذ أقدم عصور تاريخه، وما شـوهد في هـذا العالم من آثار الأمم البشرية قديمها وحديثها، يدلنا على أن الإنسان ما أتى عليه حين من الدهر إلا اتخذ فيه لنفسه إلهاً وعبده. وكذلك كل ما يوجد اليوم في مختلف بقاع الأرض، من الأمم والشعوب، وحشيها ومتمدنها، تعتقد لنفسها إلهاً وتعبده، وهذا أمر يدل كـل الدلالة على أن تصور الإله متمكن من نفس الإنسان، وأن فيه شيئاً يجبره على أن يتخـذ لنفسه إلهاً من الآلهة ويعبده. فما سبب كل هذا ؟ يمكنك أن تعرف هذا، بإلقاء نظـرة في ذات نفسك، وفي حال البشر جميعاً.

إن الإنسان ما خلق إلا على العبدية، وهو فقير محتاج ضعيف من حيث الفطـرة. فكم هناك من شيء يحتاج إليه لاستبقاء حياته ليس من متناول يده وقد يناله مرة ويـسلبه أخرى.

وكم هناك من شيء ينفعه ويريد الحصول عليه، وقد يفوز به مرة ولا يفوز به مرة أخرى. وذلك أن الحصول عليه مما ليس في متناول قدرته.

وكم هناك من شيء يضره ويخيب آماله ويضيع عليه جهوده ويصب عليه المصائب والمحن والأمراض، وهو يريد أن يدفعه عن نفسه، فيندفع مرة ولا يندفع أخرى. فيدل كل ذلك على أن وقوعه وعدم وقوعه عليه، أو اندفاعه عنه، ليس في مكنة الإنسان نفسه.

وكم هناك من شيء تملأه عظمته وجلالة شأنه رعباً : يرى الجبال والأنهار والبهائم الضارية المخيفة، ويشاهد عواصف الرياح وسيول المياه وزلازل الأرض، ويعرض له كثير من مناظر صعق الرعد واسوداد السحب القاتمة ولمعان البرق ونزول الأمطار الغزيرة، فما أعظم هذه الأشياء وأقواها وأكبرها في عين الإنسان، وما أضـعفه وأحقـره وأعجـزه بإزائها... ذلك ما يخيل إليه عندما ينظر إلى هذه الأشياء ويتأمل شأنها.

فبالنظر إلى هذه المناظر المختلفة، والتأمل في أحوال عجزه وضعفه، ينشأ في قلبـه الشعور بأنه عبد ضعيف محتاج إلى غيره. وبنشوء هذا الشعور في قلبه، ينشأ فيـه تـصور الإله تتمثل له اليدان اللتان تملكان هذه الأشياء العظيمة، ويجبره الشعور بعظمتها وجلالـة شأنهما على أن يطأطئ لهما رأسه بالعبادة والطاعة ويجبره الشعور بقواهما النافعة، على أن يبسط إليهما يده راجياً مستغيثاً ويجبره الشعور بقواهما الضارة على أن يخافهما ويتعوذ من غضبهما.

يظن الإنسان، وهو في أسفل درجات الجهل، أن هذه الأشياء الـتي يراهـا قويـة عظيمة، أو يشعر بنفعها أو ضررها لنفسه بوجه من الوجوه، هي " الآلهة " في حد ذاتهـا، ومن أجل ذلك تراه يعبد الوحوش والأنهار والجبال ويسجد لها، ويعبـد الأرض والنـار والمطر والرياح والقمر والشمس والنجوم إلخ...

ولكن عندما ينقشع عنه هذا الجهل قليلاً، وينفذ إليه قبس من العلم والنور، يعلم أن هذه الأشياء كلها ضعيفة عاجزة مثله. وأن الموت يدرك أكبر الحيوان وأضـخمه كمـا

يدرك أتفه الحيوان وأحقره. وأن الأنهار الكبيرة تجف ويغور ماؤها وهي دائماً عرضة للمد والجزر. وأن الإنسان يكسر الجبال وينحتها، وأن الأرض لا تقدر أن تخصب وتنبت من بطنها شيئاً بنفسها، وإنما تحتاج في كل ذلك إلى الماء، وأنها تجف وتقحل عندما لا تجد الماء الكافي لها، وأن الماء لا يأتي من السماء بنفسه، وإنما يأتي به الهواء الذي يهب ويسوق السحاب، وأن الهواء ليس بقادر على أن يهب ويكون نافعاً أو غير نافع للناس بنفسه، وإنما يتوقف كل ذلك على أسباب أخرى، وكذلك يرى أن الشمس والقمر والنجوم في السماء مذعنة لقانون مطرد لا تكاد تخرج عليه وتتحرك عنه ولو قيد شعرة. فهنا يتوجه ذهنه إلى أن هذه الأشياء الظاهرة، تستند في عملها إلى قوى مستترة في الكون تملكها وتتحكم فيها، وهي قادرة على كل شيء. ومن هنا تنشأ في ذهن الإنسان العقيدة بالآلهة المتعددة الخافية، فيظن أن لكل من النور والهواء والماء والمرض والصحة والجمال والقبح إلهاً خاصاً، يتصور له في ذهنه صورة خيالية، يعكف عليها ويسجد لها.

ثم عندما يزداد لديه هذا النور، نور العلم والمعرفة، يجد أن في نظام الكون مواظبة على قانون مهيمن وضابطة محكمة قوية، ويشاهد كيف يهب الهواء، وينزل المطر، وتدور السيارات في السماء، وتتغير الفصول، وتنضج الأثمار والزروع تحت قاعدة مطردة، وكيف تتحد القوى الكثيرة المختلفة وتعمل متعاونة فيما بينها في هذا النظام. ويرى من إتقان هذا القانون وأحكامه، أن الوقت الذي قدر لكل عمل من الأعمال في هذا الكون، تتجمع فيه أسبابه وتتعاون فيما بينها من غير تخلف ولا تأخر، وهكذا فبالنظر في هذا الكون ونظامه المطرد المحكم، يضطر المشرك إلى أن يسلم بأن لهذا الكون إلهاً هو أكبر الآلهة يحكمهم ويرأسهم، لأنه لو كان هؤلاء الآلهة متفرقين مستقلين بأمرهم، لاختل نظام الكون وعمّه الفساد والفوضى. وهو يُسَمِّي هذا الإله الأكبر " الله " أو " برميشور " أو " خداي خدايكان "، ولكنه يشرك بعبادته هؤلاء الآلهة الصغار، ويظن أن الألوهية كالملوكية الدنيوية، فكما أن للملك في الدنيا كثيراً من الوزراء يعتمد عليهم، ويشاورهم في القيام بأمر ملكه، وينوط بهم كثيراً من مناصبه، كذلك يستعين هذا الإله الأكبر بهؤلاء الآلهة الصغار في القيام بتدبير هذا الكون، فلا يمكن الوصول إليه أو القربى عنده. ما لم يعمل على استرضاء هؤلاء الآلهة الصغار، فعلى الإنسان أن يعبدهم، ويعكف عليهم أيضاً، ويتقي سخطهم ويجعلهم وسيلة للوصول إلى الإله الأكبر، ويبسط إليهم يديه بالاستمداد والاستنصار. ويعمل على استرضائهم بالنذور والقرابين.

ثم عندما يترقى علم الإنسان ويزداد بصيرة، يأخذ عدد الآلهة يقل عنده شيئاً فشيئاً : يتفكر في الآلهة الذين اتخذهم الجهلاء، ويتأمل فيهم واحداً واحداً، ويعلم أنهم ليسوا بآلهة، بل إن هم إلا عباد كسائر العباد، إن لم يكونوا أقل منهم قوة وأضعف منهم حيلة، فيتركهم ويكف عن عبادتهم واحداً بعد آخر. حتى لا يبقى له منهم في آخر الأمر إلا إله واحد، غير أنه لا يزال في أفكاره كثير من الجهل عن هذا الإله الواحد، فمن الناس من

يظن أن لله جسماً كأجسامنا، وهو قاعد في ناحية يرى الناس يعبدونه ويسجدون له، ومنهم من يحسب أن لله صاحبة وأولاداً، وهو يتناسل كما يتناسل الإنسان، ومنهم من يزعم أن الله يترل إلى الأرض بصورة البشر، ومنهم من يقول: إن الله قد تنحى عن أمر هذا الكون بعدما خلقه وجعله يعمل، فهو الآن مستريح في مكان من الأماكن، ومنهم من يقول: إنه لا بد عند الله من شفاعة الشافعين من الأولياء والأرواح المقدسة واتخاذهم إليه وسيلة، ومنهم من في ذهنه صورة لله تعالى يرى من الضروري أن يضعها أمامه عند العبادة، فهكذا يبق في ذهنه كثير من الأوهام الواهية على كونه معتقداً بالتوحيد، وهي التي لأجلها يتورط في أوحال الشرك والكفر، وما كل ذلك إلا من نتائج الجهالة.

وآخر هذه الدرجات وأعلاها " لا إله إلا الله ". وذلك هو العلم الذي أرسل به الحق تعالى، أنبياءه ورسله، إلى عباده في كل قطر وزمان، فقد أوتيه آدم أولاً، ثم أوتيه نوح وإبراهيم وموسى وغيرهم من الأنبياء، وجاء به في آخرهم محمد صلى الله عليه وسلم. وهو العلم الخالص الذي لا تشوبه شائبة من الجاهلية، وما ابتلى الإنسان بكل ما ذكرنا آنفاً من صور الكفر والشرك وعبادة الأصنام، إلا لإعراضه عن تعليم الأنبياء، واعتماده على حواسه وعقله، وتعال نبين لك ما تتضمن هذه الفقرة الموجزة من حقيقة ثابتة ومعان عالية:

١- فأول شيء وأهمه هو تصور الألوهية، وذلك أن هذا الكون العظيم، الذي يعجز العقل الإنساني عن تدبره، وعن معرفة مبدئه ومنتهاه، والذي قد خلق ولا يزال فيه من الخلق ما لا يأتي تحت الحصر، والذي يحدث ويتجدد فيه كل يوم من الحوادث والمخترعات ما يبهر العقل الإنساني، لا يمكن أن يكون إلهه إلا حياً لا يموت ولا يُحَدّ، صمداً لا يحتاج إلى غيره، قادراً على كل شيء، حكيماً لا يخطئ عليماً لا يخفى عليه شيء، غالباً لا يعصى له أمر، مالكاً لقوى غير محدودة، يستمد منه كل شيء في هذا الكون أسباب حياته ورزقه، مترهاً عن المعايب والنقائص ولا قبل لأحد بالتدخل في أموره.

٢- ولا بد أن تكون صفات الألوهية هذه كلها متجمعة في ذات واحدة بعينها، ولا يمكن أن تستوفيها ذاتان اثنتان استيفاء سوياً، فإنه لا يمكن أن يكون الغالب للجميع والحاكم على الكل إلا ذاتاً واحدة بعينها. وكذلك من المستحيل أن تتوزع هذه الصفات بين مختلف الآلهة، فإنه إذا كان هذا حاكماً، وذاك عالماً، وغيرهما رازقاً، ثم لم يتعاونوا فيما بينهم فلا بد للدنيا من الدمار والانقراض. وكذلك لا يمكن أن تنتقل هذه الصفات من واحد إلى آخر، أي يكون لهذا إلهاً مرة وذاك الأخرى، فأنى للإله الذي لا يقدر على استبقاء حياته، أن يمنح الحياة غيره، وللذي لا يستطيع أن يحافظ على ألوهيته، أن يحكم هذا الكون ويتصرف فيه. والحق أن الإنسان على قدر ما ينال من نور العلم يزداد يقيناً بأن صفات الألوهية يجب ألا يستوفيها إلا ذات واحدة بعينها.

٣- وإذا جعلت في ذهنك هذا التصور الشامل الصحيح للألوهية، ثم نظرت في هذا الكون، علمت أن كل شيء تراه أو تحسه بحاسة من الحواس أو تحيط به علماً، ليس بمتصف بهذه الصفات. وجميع الموجودات في هذا الكون محتاجة إلى غيرها مغلوبة على أمرها : تحيا وتموت، وتصلح وتفسد، ولا تبقى على حالة واحدة مستقلة، ولا تقدر أن تأتي بعمل من تلقاء نفسها وحسب مشيئتها، ولا قبل لها بالخروج على القانون الجاري عليها من فوقها، وهي تشهد بلسان حالها، أن ليس شيء منها بإله، ولا يوجد عليه أدنى مسحة من الألوهية ولا دخل له في الألوهية قليلاً ولا كثيراً. فهذا هو معنى " لا إله ".

٤- إذا سلبت كل شيء صغيراً أم كبيراً الألوهية في هذا الكون. فلا بد من الإقرار بأن هناك ذاتاً هي فوق كل شيء. ولا يستوفي صفات الألوهية في الوجود إلا هي وحدها، وهذا هو معنى " لا إله إلا الله ".

وهذا هو العلم الأكبر، والمعرفة التامة. كلما ازددت بحثاً في هذا الشأن، علمت أن هذا هو مبدأ العلم وهذا هو منتهاه. وإذا تناولت علماً من العلوم التي تبحث في حقائق هذا الكون، كالطبيعيات والكيمياء والهيئة والأرضيات والحياتيات والحيوانيات والإنسانيات، وسبرت غور التحقيق في بابه، ازددت إيماناً وتصديقاً بأن لا إله إلا الله. وانكشف لك عند كل خطوة من خطواتك في ميدان التحقيق العلمي، أن لا معنى لشيء في هذا الكون، بعد إنكار هذه الحقيقة الناصعة المهمة.

تأثير عقيدة التوحيد في حياة الإنسان :

هذا، وتعال نبين لك الآن كيف يؤثر الإقرار بالتوحيد في حياة الإنسان، ولماذا يكتب الإخفاق والخسران لمن لا يؤمن بهذه الكلمة.

١- لا يمكن أن يكون المؤمن بهذه الكلمة ضيق النظر، فإنه يؤمن بالذي خلق السماوات والأرض، ويملك مشارق الأرض ومغاربها، وهو رب العالمين يرزقهم ويربيهم. فهو لا يستغرب شيئاً في هذا الكون بعد هذا الإيمان، لأن كل شيء فيه ملك ورعية لمالكه هو، وليس في هذا الكون شيء يقوم في وجهه، ويجد عليه عاطفة الحب والمواساة والخدمة. بل هو واسع النظر، لا يضيقه شيء كما لا يضيق شيء ملك الله تعالى. وذلك ما لا يمكن أن يظفر به رجل يقول بآلهة متعددة، أو يعتقد في الله صفات الإنسان الناقصة المحدودة، أو لا يقول بالله أصلاً.

٢- إن الإيمان بهذه الكلمة ينشئ في الإنسان من الأنفة وعزة النفس ما لا يقوم دونه شيء. فهو يعلم أن الله الواحد هو المالك الحقيقي لكل ما في هذا الكون من القوى، وأنه لا ضار ولا نافع إلا هو، وأنه لا محيي ولا مميت إلا هو، وأنه لا صاحب للحكم والسلطة والسيادة إلا هو وحده. فهذا العلم اليقيني يغنيه عن غير الله، وينزع من قلبه خوف سواه، فلا يطأطئ رأسه أمام أحد من الخلق. ولا يتضرع إليه، ولا يتكفف له، ولا

يرتعب من كبريائه وعظمته. ومثل هذه الصفة لا يمكن أن يتصف بها إنسان غير مؤمن بهذه الكلمة. ومما يستلزمه الشرك والكفر والإلحاد أن يطأطئ المرء رأسه لغيره من الخلق، ويراه قادراً على جلب النفع والمضرة إليه، ويرهبه ويعلق به آماله.

٣- وفي الوقت نفسه، أي مع الأنفة وعزة النفس، ينشئ الإيمان بهذه الكلمة التواضع في الإنسان. فالذي يقول بأن لا إله إلا الله، لا يمكن أن يكون بطراً متكبراً. ولا يكاد ينفخ أوداجه شيطان الغرور ويزهيه بقوته وكفاءته، فإنه يعلم ويستيقن أن الله هو الذي قد وهب له كل ما عنده. وهو قادر على سلبه إياه إذا شاء. أما الإنسان الملحد الذي لا يؤمن بوجود الله، فهو يبطر ويتكبر ويشمخ بأنه إذا حصلت له نعمة عاجلة. إذ أنه يعد هذه النعمة نتيجة لجهوده أو كفاءته، وكذلك يتكبر المشرك عندما ينال نعمة من النعم الدنيوية، لأنه يظن أن له على آلهته دالة لا يتمتع بها غيره.

٤- إن المؤمن بهذه الكلمة، يعلم علم اليقين، أن لا سبيل له إلى النجاة والفلاح، إلا تزكية النفس والعمل الصالح. فإنه يؤمن بالإله الغني الصمد العادل الذي لا يمت إليه أحد بصلة، وما لأحد من دخل أو نفوذ في ألوهيته. أما المشركون والكفار فإنما يقضون أيام حياتهم على أماني كاذبة، فمنهم من يقول: إن ابن الله قد أصبح كفارة عن ذنوبنا، عند أبيه، ومنهم من يقول نحن أبناء الله وأحباؤه فلن يعذبنا بذنوبنا، ومنهم من يقول: إنا سنستشفع عند الله بكبرائنا وأتقيائنا، ومنهم من يقدم النذور والقرابين إلى آلهته ويزعم أنه قد نال بذلك رخصة في العمل بما يشاء.

فهذه المعتقدات الفاسدة وأمثالها، لا تزال تركس هؤلاء الناس في أوحال الذنوب والمعاصي، وهم يلهون – اتكالاً عليها – عن تزكية نفوسهم وإصلاح أعمالهم. أما الملحدون الذين لا يعتقدون أصلاً أن هناك خالقاً فوقهم، يسألهم عن أعمالهم، ويجازيهم عليها، إن شراً فشر وإن خيراً فخير، فيحسبون أنفسهم أحراراً في الدنيا، غير مقيدين بقانون من فوقهم، وإنما الشهوات النفسية هي إلههم وهم عبيدها.

٥- والذي يقول بهذه الكلمة، لا يتسرب إليه اليأس ولا يقعد به القنوط في أي حال من الأحوال، فإنه يؤمن بالذي له خزائن السماوات والأرض، والذي لا تعد نعمه وآلاؤه ولا تقدر قواه. فهذا الإيمان ينعم على قلبه بطمأنينة غير عادية، ويملؤها سكينة وأملاً، ولو أهين في الدنيا وطرد عن كل باب من أبوابها، وضاقت عليه سبل العيش، وانقطعت عنه الأسباب المادية طراً، فإن عين الله لا تغفل عنه ولا تسلمه إلى نفسه. فلا يزال يبذل الجهود المتتابعة متوكلاً على الله، ومستمداً منه المعونة في جميع أحواله. فهذه السكينة القلبية والطمأنينة الروحية، لا يمكن حصولها بشيء غير عقيدة التوحيد، فبما أن الكفار والمشركين والملحدين تكون قلوبهم ضعيفة، وهم يعتمدون على القوى المحدودة، فسرعان ما يحيط بهم اليأس، ويساورهم القنوط عند الشدائد، وقد يفضي بهم أحياناً إلى الانتحار.

٦- والإيمان بهذه الكلمة يربي الإنسان على قوة عظيمة من العزم والإقدام والـصبر والثبات والتوكل، حينما يضطلع بمعالي الأمور في الدنيا ابتغاء لمرضاة الله، يكون على يقين تام أن وراءه قوة ملك السماوات والأرض، تؤيده وتأخذ بيده في كل مرحلة من مراحله. فلا يكون رسوخه وثباته وصلابته التي يستمدها من هذا التصور، بأقل من رسوخ الجبـل وثباته وصلابته، فلا تكاد أي مصيبة من مصائب الدنيا، ولا أي قوة من قواها المخالفـة، تثبطه عما يكون قد عقد العزم... وأنى للشرك والكفر والإلحاد بمثل هذه القوة والثبات.

٧- وهذه الكلمة تشجع الإنسان وتملأ قلبه جرأة. وذلك أن الذي يجبن الإنـسان ويوهن عزمه شيئان: حبه للنفس والمال والأهل، أو اعتقاده أن هناك أحداً غير الله يميـت الإنسان، وأنه قادر على أن يدرأ عن نفسه الموت بحيلة من الحيل فإيمان المرء ب " لا إلـه إلا الله " يترع عن قلب الإنسان كلاً من هذين السببين ويطهره من أدرانه كل الـتطهير: يترع الأول بأن يجعله موقناً أن الله هو المالك الوحيد لنفسه وماله، ومستعداً لأن يـضحي في سبيل مرضاته بكل غال أو رخيص عنده، ويترع الثاني بأنه يلقي في روعه، أنه لا يقدر على سلب الحياة منه إنسان ولا حيوان، ولا قنبلة ولا مدفع، ولا سـيف ولا حجـر ولا خشب، وإنما يقدر على ذلك الله وحده، وهو قد عين لموته وقتاً لا تقدر قوى الدنيا جمعاء أن تستعجله إليه. ومن أجل ذلك لا يكون في الدنيا أشجع ولا أجرأ ممن يؤمن بالله تعالى وحده، فلا يكاد يخيفه أو يثبت في وجهه زحف الجيوش، ولا السيوف المسلولة، ولا مطر الرصاصات والقنابل، فإنه عندما يتقدم في سبيل الله للجهاد، يهزم قوة تزيد علـى قوتـه بعشر مرات وأنى بمثل هذه القوة للمشركين والكفار والملحدين، الذين يعتبرون نفوسـهم أعز شيء لديهم، والذين يعتقدون أن الموت يقبل بإقبال العدو ويدبر بإدباره ؟!

٨- والإيمان ب " لا إله إلا الله " يرفع قدر الإنسان وينشئ فيه الترفـع والقناعـة والاستغناء، ويطهر قلبه من أوساخ الطمع والشره والحسد والدناءة واللؤم، وما إليها مـن الصفات القبيحة والعواطف السافلة الأخرى. ولا يكاد يخطر بباله، أن يميل للحصول على نجاحه إلى طرق دنيئة غير مشروعة، فإنه يعتقد أن ليس الرزق إلا بيد الله وحده يبسطه لمن يشاء ويقدره على من يشاء، وما العزة والقوة والشهرة والسلطة والنفوذ والغلبة إلا بيد الله وحده، يعطي منها ما يشاء لمن يريد حسب ما تقتضيه حكمته، وما علـى الإنـسان إلى السعي المشروع على قدر وسعه. ولا ينحصر النجاح أو الخسران إلا في الفضل لله وحده، ولا معطي لما منع ولا مانع لما أعطى. أما الكافرون والمشركون والملحدون، فإنما يحسبون نجاحهم أو خسرانهم منحصراً في مساعدة القوى الدنيوية أو مخالفتها، فهم عبيد الطمـع والشره، ولا يتحرجون لنجاحهم من الارتشاء والتملق والمؤامرة وما إليها من الوسـائل الدنيئة الأخرى. ويعضون الأنامل على غيرهم حسداً لهم على نجاحهم، ولا يتركون حيلة مشروعة أو غير مشروعة لإسقاط محسوديهم أو مخالفيهم إلا أتوها بكل وقاحة.

٩- وأهم شيء وأجدره في هذا الصدد، أن الإيمان ب " لا إلــه إلا الله " يجعــل الإنسان متقيداً بقانون الله ومحافظاً عليه. فإن المؤمن يكون على يقين، بسبب اعتقاده بهذه الكلمة، أن الله خبير بكل شيء، وهو أقرب إليه من حبل الوريد، وأنه إن أتى بعمــل في ظلمة الليل أو حالة الوحدة، فإن الله يعلمه، وأنه إن خطر بباله شيء غير جميل، فإن علــم الله محيط به، وأنه إن كان من الممكن له أن يخفي أعماله على كل واحد في الدنيا، فإنه لا يستطيع إخفاءه على الله عزّ وجل، وأنه إن كان يستطيع أن يفلت من بطش أي كــان، فإنه لا يستطيع أن يفلت من الله عزّ وجل، فعلى قدر ما يكون هذا الإيمان راسخاً في ذهن الإنسان، يكون متبعاً لأحكام الله قائماً عند حدوده : لا يجرؤ على اقتراف ما حــرم الله، ويسارع إلى الخيرات والعمل بما أمر الله به، ولو في ظلمة الليل أو حال الوحدة والخلــوة، فإن معه شرطة لا تفارقه حيناً من أحيانه، وهو يتمثل دائماً أمام عينه تلك المحكمة العليــا التي لا يكاد الإنسان ينفذ من دائرة حسابها، ومن أجل ذلك فقد جعل الإيمان ب " لا إله إلا الله " أول شرط وأهمه ليكون الإنسان مسلماً، فإن المسلم، كما بينا لــك معنــاه في الفصل الأول من هذه الرسالة، هو العبد المطيع المنقاد لله تعــالى، ولا يمكــن أن يكــون الإنسان عبداً مطيعاً منقاداً لله تعالى، إلا إذا كان مؤمناً من قلبه بأن لا إله إلا الله.

وهذا الإيمان ب " لا إله إلا الله " هو الركن المهم الأساسي من تعلــيم الــنبي ﷺ وهو مركز الإسلام وأصله ومصدر قوته، وكل ما عداه من معتقدات الإسلام وأحكامــه وقوانينه إنما تقوم على هذا الأساس نفسه ولا تستمد قوتها إلا منه. والإسلام لا يبقى منــه شيء لو زال هذا الأساس من مكانه.

الإيمان بملائكة الله :

والأمر الثاني الذي أمر النبي ﷺ أن نؤمن بعد الله عزّ وجل، هو وجود الملائكــة، وأكبر فائدة لهذا الإيمان، أن تتطهر عقيدة التوحيد من شوائب الشرك وأدرانه وأخطــاره كلها.

وقد عرفت من قبل أن المشركين إنما أشركوا بالله نوعين من الخلق : نــوع مــن الخلائق التي لها وجود جسدي وتدركها الأبصار كالشمس والقمر والنجوم والنار والمــاء وكبار الناس الخ... ونوع من الخلائق التي ليس لها وجود جسماني، وهي متواريــة عــن الأنظار وتقوم بتدبير أمور الكون وراء الحجاب، فبعضها ترسل الهواء والرياح، وبعــضها تسوق السحاب وتنزل المطر، وبعضها تهيء النور، الخ... فالخلائق من النوع الأول، الــتي هي ماثلة أمام الإنسان، تنتفي ألوهيتها بمجرد لفظة " لا إله إلا الله ". أما الخلائــق مــن النوع الثاني التي هي خافية على الأنظار ولا تأتي تحت الحواس فهي التي يولع المشركون بها عامة، ويرون فيها آلهة ومعبودين لأنفسهم، أو ذرية لله تعالى، وهي التي يــصورون لهــا

صوراً خيالية، يسجدون لها، ويتقربون إليها بالنذور. لهذا فقد بين الإسلام عقيدة مستقلة أخرى ليتره عقيدة الناس بالتوحيد عن هذه الشعبة الثانية من الشرك.

وقد بين لنا الرسول ﷺ أن تلك الخلائق النورانية، التي يرى فيها البعض آلهة لأنفسهم أو يجعلونها ذرية لله تعالى، إنما هي ملائكة الله تعالى لا دخل لها في ألوهيته في حقيقة الأمر، وهم يطيعون الله تعالى ولا يعصون له أمراً، والله تعالى يدبر بهم ملكه، وهم يقومون بأوامره حق القيام، وهم لا يقدرون على شيء من تلقاء أنفسهم، ولا يستطيعون أن يقترحوا على الله شيئاً بفضل قوتهم، ولا قبل لهم بأن يشفعوا إليه في أحد. ومن الذل والعار على الإنسان أن يعبدهم أو يستعينهم، فإن الله قد أسجدهم لآدم # يوم خلقه، وأعطاه من العلم ما لم يعطهم، وجعله خليفته في الأرض من دونهم. فأي عار على الإنسان أشنع من أن يسجد للملائكة الذين قد سجدوا له من قبل.

فمن جهة نهانا النبي ﷺ أن نعبد الملائكة ونشركهم بالله في ألوهيته، ومن جهة أخرى بين لنا أن هؤلاء الملائكة عباد الله المصطفون، وهم مترهون عن الأخطاء والآثام، وقد فطروا على ألا يعصوا لله أمراً، ويفعلوا كل ما يؤمرون به من فوقهم، وهم منقطعون دائماً إلى العبادة. والله تعالى قد اصطفى منهم ملكاً كريماً – وهو جبريل # – يترل بالوحي على رسله وأنبيائه، وهو الذي نزل بالقرآن على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم. ومن هؤلاء الملائكة من يلازمون الناس في كل حين من أحيائهم، ويشهدون كل ما يأتون به من حركة حسنة أو غير حسنة، ويسمعون ويسجلون ما يصدر عنهم من كلام حسن أو غير حسن، وعندهم سجل لأعمال كل واحد من البشر وأقواله، يعرضونه عليه يوم يقوم بين يدي الله تعالى في محكمته، ويشهدون فيه بكل ما يكون قد جاء به في الحياة الدنيا من سيئة أو حسنة في السر والعلن.

أما حقيقة الملائكة وكيفية خلقهم فلم نخبر عنها بشيء، وإنما أمرنا أن نؤمن بوجودهم، ولا سبيل إلى معرفة كيفيتهم، ومن الجهالة أن نختلق شيئاً عن كيفية خلقهم من عند أنفسنا، ومن الكفر أن ننكر وجودهم، فإنه لا حجة لأحد على هذا الإنكار ولا معنى لإنكار وجود الملائكة إلا تكذيب النبي صلى الله عليه وسلم. والحق أننا لا نؤمن بوجود الملائكة إلا لأن نبي الله الصادق المصدوق أمرنا أن نؤمن بذلك.

الإيمان بكتب الله :

والأمر الثالث الذي أمرنا بواسطة النبي ﷺ أن نؤمن به، هو كتب الله التي أنزلها على أنبيائه ورسله.

فكما أن الله تعالى قد أنزل القرآن على نبينا محمد ﷺ فهو قد أنزل كتبه – من قبل – على من سبقه من أنبيائه، وقد أخبرنا بأسماء بعض هذه الكتب، كصحف إبراهيم

التي أنزلت على إبراهيم # ، والتوراة التي أوتيها موسى # ، والزبور الذي أرسل بـه داود # ، والإنجيل الذي جاء به عيسى # . أما الكتب الأخرى التي أوتيها سائر الأنبياء فلم نخبر عن أسمائها، ولا نكاد نقطع عن كتاب ديني آخر بأنه كان و لم يكن من عند الله تعالى. غير أننا نؤمن أن كل كتاب نزل من عند الله تعالى هو الحق.

إن هذه الكتب التي أخبرنا بأسمائها، لم يبق لصحف إبراهيم منها وجود في الدنيا. أما التوراة والزبور والإنجيل، فإنها وإن كانت لا تزال عند اليهود والنصارى، ولكنهم قد حرفوها كثيراً وبدلوا كلمها عن مواضعها وحذفوا منها وأضافوا إليها كثيراً من الآراء من عند أنفسهم، حتى أن اليهود والنصارى أنفسهم، يعترفون اليوم، أنه ليست عندهم تلك الكتب الأصلية التي نزلت على موسى وداود وعيسى عليهم السلام، وإنما بأيديهم تراجمها، التي ما زالت هي نفسها منذ قرون عرضة للتغيير والتبديل والزيادة والنقص، وكذلك يظهر بمجرد قراءة هذه الكتب أن فيها كثيراً من الأمور التي لا يمكن أن تكون من عند الله. فليست هذه الكتب الموجودة اليوم في الدنيا، نفس تلك الكتب التي أنزلها الله تعالى على موسى وداود وعيسى عليهم السلام، وقد اختلط فيها كلام الله بكلام الناس، حيث لم يبق بأيدي الناس من وسيلة لتمييز كلام الله من كلام الناس. فما أمرنا بالإيمان بالكتب الماضية، إلا من حيث أن الله كان أرسل رسله بأحكامه إلى كل أمة من الأمم الماضية قبل القرآن، وأنه ما كانت هذه الأحكام إلا من عند الله الذي أنزل القرآن على محمد صلى الله عليه وسلم، وإنما جاء ليحيي ذلك الهدى الذي ناله الناس في الزمر الماضي ثم أضاعوه أو بدلوه أو خلطوه بكلام الناس.

والقرآن هو آخر كتاب نزل من عند الله تعالى، والفرق بينه وبين الكتب الماضية من عدة وجوه :

١- إن الكتب التي نزلت قبل القرآن، قد ضاعت نسخها الأصلية، وما بقي بأيدي الناس إلا تراجمها كما عرفت آنفاً. أما القرآن، فلا يزال محفوظاً بعين الكلمات والأحرف التي نزل بها من عند الله تعالى، وما دب دبيب التغير إلى حرف من أحرفه أو حركة من حركاته.

٢- قد خلط الناس كلامهم بكلام الله في هذه الكتب، ففي كتاب واحد يوجد كلام الناس، والتاريخ القومي، وسير الأكابر والأنبياء والتفسير، والمسائل الشرعية التي استنبطها الفقهاء، حيث لا يمكن أن يعرف فيه كلام الله من كلام غيره. أما القرآن، فنجد فيه كلام الله تعالى خالصاً نقياً غير مشوب بشيء من كلام آخر. وكل ما كتبه المسلمون في التفسير أو الحديث أو الفقه أو سيرة الرسول ﷺ أو سيرة الصحابة أو تاريخ الإسلام، لم يخلطوه بالقرآن، وكله مدون محفوظ في كتب غير القرآن.

٣- إن جميع الكتب التي توجد اليوم عند مختلف أمم الأرض، لا يمكن أن يثبت عن واحد منها باستناد تاريخي، أنه نزل على النبي الذي ينسب إليه، بل هناك كثير من الكتب

الدينية، لا يعرف عنها أصلاً على من نزلت وفي أي زمن نزلت، أما القرآن، فقد تضافرت الشواهد التاريخية القوية القاطعة بتروله على محمد ﷺ مما لا يكاد يشك فيه أحد، بل من المعلوم فوق ذلك عن كل آية منه، متى وأين نزلت عليه صلى الله عليه وسلم.

٤- إن اللغات التي نزلت بها الكتب القديمة، قد أكل عليها الدهر وشرب، وأصبحت في خبر كان منذ زمن غير يسير، فلا يوجد المتكلمون بها في أي بقعة من بقاع الأرض اليوم، وقليل جداً أولئك الذين يقدرون على أن يفهموها. ولو أن مثل هذه الكتب كانت باقية بأشكالها الأصلية اليوم لكان من المستحيل للناس أن يفهموها ويتبعوا أحكامها. أما اللغة التي نزل بها القرآن الكريم، فلغة حية يتكلم بها عشرات الملايين من البشر ويفهمها مئات الملايين منهم في هذه المعمورة، وهي تعلم وتدرس في كل قطر من أقطار العالم، ومن السهل لكل من أراد تعلمها أن يتعلمها، ومن الممكن لمن لا يتسع وقته لتعلمها أن يجد في كل مكان من يفهمه معاني القرآن وأحكامه.

٥- وجميع ما عند مختلف أمم الأرض اليوم من الكتب الدينية، إنما وجه الكلام في كل واحد منها إلى أمة خاصة دون سائر الأمم. وكذلك إذا نظر المرء فيما يوجد في هذه الكتب من الأحكام، علم من غير شك، أن أكثرها كان لزمن خاص، جاءت وفقاً لأحواله ومطالبه وحاجاته، ولا حاجة للناس إليها ولا يمكن العمل بها في هذا الزمان، فالظاهر أن هذه الكتب كانت خاصة بزمن دون سائر الأزمان وأمة دون سائر الأمم، وما كان كتاب منها للناس جميعاً. وكذلك فإن الأمم التي جاءت لها هذه الكتب، ما كانت لها إلى الأبد ولكن كانت لها لمدة محدودة من الزمن. ولكنك إذا نظرت بهذه النظرة في القرآن، علمت أن الخطاب موجه في كل مكان منه إلى الإنسان من حيث جنسه، ولا يخطر ببال القارئ عند أيّة آية من آياته، أنها خاصة بأمة دون سائر الأمم. وكذلك يمكن العمل بكل ما جاء في القرآن من الأحكام في كل قطر وفي كل زمان، مما يشهد شهادة ناطقة بأن القرآن للعالمين جميعاً إلى أبد الدهر.

٦- والكتب القديمة وإن جاء كل كتاب منها مشتملاً على أمور من الصدق والخير، ولقن الإنسان فيه مبادئ الأخلاق والصلاح، وأرشد إلى طريق مستقيم لقضاء حياته وفقاً لمرضاة الله، ولكن أي كتاب منها لم يستوف الحسنات والفضائل كلها حيث لم يترك منها شيئاً والذي يمتاز به القرآن عن سائر هذه الكتب أنه قد استجمع فيه كل ما كان في الكتب القديمة من الفضائل منتشرة، وقد بين فيه ما لم يأت فيها من الحسنات والخيرات.

٧- ولأجل ما كان من الإنسان من تصرف في الكتب الدينية القديمة، تسرب إليها كثير من الأمور التي لا توافق العقل والحقيقة وتقوم على الظلم والشطط وتفسد على الإنسان عقيدته وعلمه، بل تحتوي بعض هذه الكتب على أمور من قبيل الفحشاء والمنكر والانحلال الخلقي. لكن القرآن متره كل النزاهة عن مثل هذه الأمور وليس فيه شيء

يخالف العقل أو يمكن تخطئته بالبرهان أو التجربة. وما في أمر من أموره أو حكم من أحكامه ظلم أو اعتداء، وما فيه شيء يضل الإنسان، وليس فيه عين ولا أثر للفحشاء والمنكر وعدم التقيد بالقيود الخلقية، وكله مملوء من أوله إلى آخره بالحكمة العالية، والموعظة الحسنة، وتعليم الناس العدل، وإرشادهم إلى الصراط المستقيم، وإلى أحسن الأحكام والقوانين.

فهذه هي المزايا التي لأجلها أمر أهل الأرض جميعاً أن يؤمنوا بالقرآن، ويتبعوه وحده دون سائر الكتب، فإن أقصى ما كان أو يمكن أن يكون الإنسان محتاجاً إليه من الإرشاد والهداية، لقضاء حياته حسب مرضاة الله تعالى، قد بينه القرآن بدون نقص ولا زيادة، فلم يعد الإنسان بحاجة إلى كتاب بعد ما جاءه القرآن.

أما وقد عرفت الفرق بين القرآن وبين سائر الكتب، فقد أصبح من السهل عليك أن تتبين ما ينبغي أن يكون من الفرق بين الإيمان بالقرآن والإيمان بسائر الكتب. فما الإيمان بالكتب القديمة إلا إلى حد التصديق، أي أن هذه الكتب كانت من عند الله، وكانت صادقة، وما جاءت إلا لنفس الغرض الذي جاء لإتمامه القرآن، فهو من حيث أنه كلام الله الخالص، وهو الحق، وكل لفظ منه محفوظ وكل كلمة منه صادقة، واتباع كل أمر من أوامره فريضة وكل ما يخالف ويضاد أحكامه جدير بالرفض.

الإيمان برسل الله :

لقد أمرنا بعد الإيمان بكتب الله أن نؤمن برسله :

وقد بينا لك في الفصل السابق أن جميع أمم الأرض جاءها رسل الله تعالى، دعوا الناس إلى الإسلام الذي دعاهم إليه في ختامهم محمد صلى الله عليه وسلم، فكأنه ما كانت جميع رسل الله وأنبيائه إلا من سلسلة واحدة بعينها، فمن كذب أحداً منهم فقد كذبهم جميعاً، ومن صدق أحداً منهم، أصبح من المحتوم عليه أن يصدقهم جميعاً، هب أن لديك عشرة رجال لا يقولون إلا شيئاً واحداً، فإذا صدقت واحداً منهم، فقد صدقتهم جميعاً، وإن كذبت واحداً منهم، فقد كذبتهم جميعاً، لأنهم يقولون بما يقول به. فالذي يفرق بين رسل الله، ويؤمن ببعض ولا يؤمن ببعض، هو الكافر حقاً.

وقد بين لنا رسولنا صلى الله عليه وسلم، أن عدد من أرسل إلى مختلف الأمم من أنبياء الله مائة وأربع وعشرون ألفاً (١٢٤,٠٠٠) من النفر. ولو أنك تفكرت في عمر هذه الدنيا، وما خلا فيها إلى الآن من الأمم والشعوب، ما رأيت هذا العدد لرسل الله كثيراً، أما الذين قد قصهم القرآن علينا من هؤلاء الرسل، فيجب الإيمان بهم صراحة. وأما الذين لم يقصهم علينا منهم، فقد أمرنا أن نؤمن بهم، لأن جميع من أرسلهم الله تعالى إلى عباده لتعليمهم ودعوتهم إلى سواء السبيل، كانوا صادقين، فنحن نؤمن بكل من عسى أن يكون جاء من رسل الله، إلى بلاد الهند والصين وإيران ومصر وإفريقية وأوروبة، وسائر

نواحي الأرض وأرجائها، ولكننا لا نستطيع أن نقول عن فلان منهم بالضبط أنه كان أو لم يكن رسولاً من الله، وذلك أننا لم نخبر عن ذلك بشيء. غير أنه لا يجوز لنا بحال من الأحوال أن نذم أو نذكر بالسوء أحداً من الذين يتبعهم رجال مختلف الديانات في الأرض، وما أدرانا إن كانوا من رسل الله حقاً، ثم بدل الناس دينهم من بعدهم، كما بدل أتباع موسى وعيسى عليهما السلام دينهما الحق من بعدهما، وإن كان لنا رأي نظهره، فليكن عن طقوس دياناتهم ورسومهم في موضعها الحاضر، ولنسكت سكوتاً تاماً عمن أسسوا هذه الديانات، لئلا يصدر عنا شيء يخالف الأدب في شأن رسول من رسل الله.

ولا فرق بين محمد ﷺ وبين سائر الأنبياء، إذا كانوا جميعاً صادقين مرسلين من عند الله، هادين إلى صراطه المستقيم، أمرنا أن نؤمن بكل واحد منهم، غري أن الفرق بينه وبينهم – على هذه المماثلة – من ثلاثة وجوه :

١- أرسل هؤلاء الأنبياء إلى أمم خاصة ولأزمان محدودة، أما محمد صلى الله عليه وسلم، فقد أرسل إلى العالمين جميعاً، وحتى يوم القيامة، كما عرفت في الفصل السابق.

٢- لقد انقرضت تعاليم هؤلاء الرسل انقراضاً تاماً، أو لم تبق محفوظة بأشكالها الأصلية إن كانت قد بقيت في هذه الدنيا. وكذلك لا توجد سيرهم وأحوالهم، وقد ضاعت حقيقتها في روايات الناس وأقاصيصهم التي اختلقوها من عند أنفسهم عن حياة هؤلاء الرسل. فلا يمكن أن يتبعها المرء، وإن ودّ ذلك وسعى إليه. أما محمد صلى الله عليه وسلم، فتعاليمه وسيرته وأقواله وأعماله وأخلاقه وعاداته وخصاله، كلها مدونة في الكتب في متناول أيدي الناس. فالحق أن الحي الوحيد من بين جميع رسل الله وأنبيائه هو محمد صلى الله عليه وسلمه، وهو وحده الذي يمكن للناس أن يتبعوه ويهتدوا بهديه.

٣- إن تعاليم الإسلام الذي جاء به الأنبياء الأقدمون، ما كانت تعاليم كاملة، فما جاء نبي من هؤلاء الأنبياء إلا أصلح تعاليم الأنبياء الأقدمين وأحكامهم وقوانينهم وطرق هدايتهم، وحذف منها وأضاف إليها. فهكذا كان عامل الرقي والكمال والإصلاح يعمل عمله قبل محمد صلى الله عليه وسلم، لذا لم يحفظ الله تعالى تعاليم هؤلاء الرسل بعد مضي زمانهم، فإن الناس ما كانوا بحاجة إلى تعليم ناقص سابق إذا جاءهم تعليم كامل جديد. وأخيراً أوتي النبي محمد ﷺ تعليم الإسلام الكامل الناضج من كل جهة، وهكذا نسخت شرائع سائر الأنبياء برسالة محمد صلى الله عليه وسلم، لأن اتباع الناقص بإزاء الكامل مما يخالف العقل. ومن اتبع محمداً صلى الله عليه وسلم، فقد اتبع الأنبياء جميعاً، ذلك لأن كل ما كان من الخير في تعاليم الأنبياء الأقدمين يوجد اليوم في تعليم محمد صلى الله عليه وسلم، ومن أعرض عنه واتبع نبياً غيره، فقد حرم كثيراً من الخيرات التي أضيفت فيما بعد، لم تكن في تعليم من التعاليم الماضية.

ومن أجل ذلك كان لا بد للبشر جميعاً أن يؤمنوا بمحمد صلى الله عليــه وســلم، ويتبعوا تعليمه وعلى المسلم أن يؤمن بمحمد ﷺ من ثلاثة وجوه :

١- أنه رسول صادق من عند الله تعالى.

٢- وأن هدايته كاملة وليس فيها شيء من النقص أو الخطأ.

٣- وأنه آخر نبي جاء الناس من عند الله تعالى إلى أية أمة من الأمم إلى يوم القيامة. ولا يأتي بعده رجل يكون الإيمان به من شرط الإسلام ويكون من لا يــؤمن بــه مــن الكافرين.

الإيمان باليوم الآخر :

والأمر الخامس الذي أمرنا أن نؤمن به هو اليوم الآخر، والذي علينا أن نؤمن بــه عن ذلك اليوم هو :

١- أن الله سيمحو هذا العالم، وكل ما فيه من الخلائق، في يــوم يعــرف بيــوم القيامة.

٢- ثم يحييهم – سبحانه وتعالى – مرة اخرى، ويجمعهم بين يديه، وذلــك هــو الحشر أو البعث.

٣- ثم يقدم إلى محكمة الله تعالى، كل ما يكون الناس قد كسبوه من خير أو شــر في حياقم الدنيا، بدون نقص ولا زيادة.

٤- والله تعالى يزن لكل واحد من البشر أعماله الصالحة والسيئة، فمن رجحــت كفة أعماله الصالحة غفر له، ومن رجحت كفة أعماله السيئة عاقبه.

٥- والذين يغفر لهم يدخلون الجنة، والذين يعاقبهم يدخلون النار.

الحاجة إلى الإيمان باليوم الآخر :

وهذه العقيدة بالآخرة، عرضها محمد صلى الله عليه وسلم، كما عرضــها ســائر الأنبياء والرسل على الناس، وما زال الإيمان بها شرطاً من شــروط الإســلام في جميــع الأزمان. وقد كفّر الأنبياء كلهم من لا يؤمن بها أو يشك فيها، فإنه لا معنى للإيمان بــالله وكتبه ورسله بدون هذه العقيدة. وهذا أمر واضح لا إشكال في فهمه. فإنــه إذا طلــب إليك أن تفعل شيئاً، فأول سؤال ينشأ في ذهنك : " أية فائدة ترجع عليك إذا فعلته، وأي ضرر يصيبك إذا لم تفعله " ؟ لماذا ينشأ هذا السؤال في ذهنك ؟ ذلك لأن الإنسان يــرى بسابق فطرته، أن لا طائل تحت أمر لا يرجع عليه بجدوى. ولأجل ذلك لا تنشط لعمل لا ترجو منه فائدة لنفسك، ولا تعزف عن عمل تستيقن أنه لن يصيبك منه ضرر. وهذه هي حال الريب والشك. إن كل شيء ترتاب في فائدته لا يمكن أن ترغب فيه وتنشط للقيــام به. وكذلك كل شيء تشك في ضرره، لا يمكن أن تحاول اجتنابه والابتعاد عنه .أنظر إلى

الأطفال لماذا يلقون بأيديهم إلى النار ؟ ذلك لأنهم لا يعلمون علم اليقين أن النـــار شـــيء محرق، ولماذا يفرون من الدرس وطلب العلم ؟ ذلك لأن فوائد العلم التي يحاول كبـــارهم أن يلقوها في أذهانهم، لا تقبلها نفوسهم ولا تلج قلوبهم. وكذلك الرجل الذي لا يـــؤمن بالآخرة يرى الإيمان بالله واتباع أوامره في الدنيا عبثاً لا طائل تحته. فلا فائـــدة في نظـــره لطاعة الله ولا ضرر لمعصيته. فكيف يرجى منه بعد ذلك أن يزعج نفسه ويكرهها علـــى طاعة أوامر الله التي أنزلها على رسله، وفي كتبه ؟ وهو ولو آمن بالله، فلا معنى لإيمانه، لأنه لن يطيع الله ولن يسير في حياته وفقاً لمرضاته تعالى.

ولا يقف الأمر عند هذا الحد فحسب، فإن إنكار الإنسان للحياة لآخرة أو إقراره بها له تأثير بعيد في حياته، فإن الذي فطر عليه الإنسان – كما بينا لك مـــن قبـــل – ألا يصبو إلى عمل أو يعرض عنه إلا على قدر ما يرى فيه لنفسه من فائدة أو ضـــرر. فـــأنّى للذي لا يعدو نظره فائدة هذه العاجلة وضررها، أن ينشط لعمل صالح لا يرجو منه فائدة في هذه الدنيا، أو يجتنب عملاً سيئاً لا يخاف منه على نفسه ضرراً في هذه الـــدنيا ؟ أمـــا الذي ينفذ نظره إلى نتائج الأعمال ولا يقف عند ظواهرها، فلا يرى نفع هذه العاجلة أو ضررها إلا شيئاً عارضاً، فيؤثر الحق على الباطل والخير على الشر. نظراً إلى فائدة الآخرة أو مضرتها الأبدية، ولو كان الخير يرجع على نفسه بأفدح ضرر والسيئة بأعظم منفعة في هذه الدنيا. فانظر إلى ما بين هذين الرجلين من الفرق العظيم والبون الشاسع... فالخير في نظر الأول ما يحصل نفعه في هذه الحياة الفانية، كأن ينال ثروة، أو أرضاً، أو سمعة وحسن أحدوثة بين الناس، أو لذة أو مسرة أو شيئاً مما يروي غليل شهوة من شـــهوات نفـــسه. والشر عنده ما ينتج، أو يخشى أن ينتج، شيئاً مكروهاً في هذه الدنيا، كالنقص في الأموال والأنفس والثمرات، أو انحراف الصحة، أو سوء الأحدوثة بين الناس، أو عقوبة الحكومة، أو شيء من قبيل الحزن أو الضجر. بينما الخير في نظر الرجل الثاني ما يرضي الله، والـــشر ما يسخطه، وهو يرى أن الخير خير في كل حال، وإن لم ينفعه في هذه الحياة الدنيا وابتلاه بكل ضرر فيها، ويستيقن أن الله سيعطيه نفعاً أبدياً عنده في الآخرة، وأن الشر شر في كل حال، وإن لم يذق أو لم يخف أن يذوق وباله في هذه الحياة الدنيا، ووجد فيه المنفعة كـــل المنفعة، ويعلم علم اليقين أنه إن فاته العقاب على أعماله السيئة في هذه الدنيا، فلا مفر له منه في الآخرة.

وبموجب هذين الاتجاهين المختلفين، يختار الإنسان أحد طريقين مختلفين في حياتـــه. فالذي لا يؤمن بالآخرة، لا يمكن أن يخطو ولو خطوة واحدة في طريق الإسلام، فإذا قال له الإسلام " أد إلى الفقراء والمساكين زكاة ما عندك من الأموال تبتغي بها وجه ربـــك " قال : إن الزكاة تنقص من أموالي، فسآخذ الربا عليها بدلاً من أداء زكاتها، وسأرفع أمـــر الذين يستقرضونني إلى المحكمة، وعندما تقضي لي عليهم أصادر ما يملكون من البيوت وما فيها من الأثاث... وإذا قال له الإسلام " أصدق واجتنب قول الزور ولو كان في الصدق

أفدح الضرر وفي الكذب أعظم المنفعة "، قال : و لم أصدق إذا كان يضرني و لم أجتنب قول الزور إذا كان ينفعني ولا أخاف منه سوء الأحدوثة بين الناس ؟... يمر بطريق غير مأهوال ويجد فيه شيئاً ثميناً، فيقول له الإسلام : " أن ليس ذلك من مالك فلا تأخذه ". ولكنه يقول : لماذا أترك شيئاً جاءني عفواً من غير كد ولا بذل ثمن ؟ وليس في هذا الطريق من يراني حتى يرفع أمري إلى الشرطة، أو يشهد علي في المحكمة، أو يشوه سمعتي بين الناس، فماذا علي إذا انتفعت من هذا المال واستعملته في مصلحتي ؟... ويودع عنده رجل ماله ويأتمنه عليه ثم يموت، فيقول له الإسلام " لا تخن ما عندك من مال صاحبك، ورد أمانته إلى أهله "، ولكنه يقول : لماذا ؟ هل عند أحد شهادة بأن الميت أودع عندي ماله ؟ أم هل يعلم ورثته ذلك ؟ فإذا أمكنني أن آكل هذا المال بكل سهولة، ولا أخاف على نفسي محاكمة ولا سوء سمعة، فما أسفهني إن رددته إلى أهله !. وجملة القول : إن الإسلام يرشده إلى طريق مستقيم في كل خطوة من خطوات حياته، وهو يعارضه، ولا يختار إلا طريقاً موافقاً لهواه، لأن قيمة كل شيء في الإسلام تبع للنتائج الأبدية في الآخرة، ولكن نظره لا يعدو النتائج الحاصلة في هذه الحياة الدنيا. ومن هنا تعرف لماذا لا يمكن للإنسان أن يكون مسلماً بدون الإيمان بالآخرة، بل الحق أن إنكار المرء للحياة الآخرة، يحطه من درجة الإنسانية إلى الدرك الأسفل من البهيمية، بله أن يبقى مسلماً.

صدق عقيدة الآخرة :

قد عرفت عقيدة الآخرة، وحاجة الإنسان إليها، وفائدتها له. وها نحن أولاء نبين لك الآن على وجه الإيجاز، أن العقيدة التي بينها الرسول ﷺ عن الآخرة، هي الحق بموجب العقل أيضاً، وهذه العقيدة، وإن كان إيماننا بها اعتماداً على رسول الله، وتصديقاً بما جاء به، ولا نعول في بابها على العقل، ولكننا إذا عملنا فكرنا قليلاً، علمنا أنها أقرب عقيدة للعقل في باب الآخرة.

إن في الدنيا ثلاث عقائد عن الآخرة وحياتها :

١- تقول طائفة إن هي إلا حياتنا الدنيا نحيا ونموت وما لنا من حياة بعد الموت، وهذه عقيدة الملحدين، الذي يدعون أنهم علماء الطبيعيات Sciences.

٢- وتقول طائفة أخرى إن الإنسان يتتابع عليه الموت والحياة مرة بعد مرة في نفس هذه الدنيا لينال جزاء أعماله، فإن كانت أعماله في حياته الأولى سيئة، يأتي في حياته التالية حيواناً من الحيوانات، كالقرد أو الكلب أو الهر، أو بصورة شجرة من الأشجار، أو كرجل من أحط الناس. وإن كانت أعماله صالحة، ارتفعت به المترلة وعلت به الدرجة. ويقول بهذه العقيدة بعض من لم تنضج فكرهم الدينية.

٣- وتؤمن طائفة ثالثة باليوم الآخر، والحشر، والحضور بين يدي الله، ومجازاته للناس على أعمالهم. فهذه هي العقيدة التي دعا إليها الأنبياء عليهم السلام جميعاً.

ولننظر الآن قليلاً في هذه العقائد الثلاث :

فالذي يقول به رجال الطائفة الأولى ؛ ويعتمدون عليه في إثبات عقيدتهم، أنهم مـــا رأوا إنساناً أوتي الحياة بعد موته، بل إنما يأكله التراب وتقتنيه الأرض بعد الوفاة... أفهذه حجة من الحجج ؟ إن غاية ما يمكنك أن تقوله إذا كنت ترى أحداً أوتي الحياة بعد موته، أنك لا تعرف ماذا يكون بعد الموت. أما دعواك أنك تعرف أن لا حياة بعد الموت، فـــلا دليل عندك عليها. فرجل من أهل القرية لم يشاهد الطيارة بعينه، يمكنه القول أنه لا يدري ما هي الطيارة، ولكنه إذا قال : إنه يعرف أن ليس في هذه الدنيا شيء يعرف الطيـــارة، أحمقه الجميع، فإنه ليس معنى عدم رؤية شيء أنه لا وجود له، بل لـــو أن أهـــل الأرض قاطبة أجمعوا على أنهم لم يروا شيئاً مسمى، فلا تجوز لهم الدعوى أن لا وجـــود لـــذلك الشيء، أو لا يمكن أن يكون له وجود.

أما العقيدة الثانية، فتقول : إن الإنسان هو إنسان في حياته الحاضرة، لأنـــه عمـــل الصالحات عندما كان حيواناً في حياته الأولى، وأن الحيوان هو حيوان في حياته الحاضرة، لأنه عمل السيئات عندما كان إنساناً في حياته لأولى. وبكلمة أخرى إن كون الإنـــسان إنساناً، والحيوان حيواناً، والشجر شجراً، إنما هو نتيجة لأعماله الصالحة أو السيئة الماضية في حياته الأولى. وهكذا يتتابع عليه الموت والحياة في هذه الدنيا.

والسؤال الذي ينشأ بهذا الصدد، هو " أي شيء كان في هذه الدنيا في بدء الأمر ؟ " فإن قلت " الإنسان " فلا بد أن يكون حيواناً أو شجراً قبل ذلك، وإلا فعلى أي عمـــل صالح أنعم عليه قالب الإنسان هذا ؟ وإن قلت " الحيوان أو الشجر "، فلا بد أن يكـــون إنساناً قبل ذلك. وإلا فما هي الأعمال السيئة التي اقترفها وأوتي قالب الحيوان أو الشجر جزاء عليها ؟ فالحق أن القائلين بهذه العقيدة لا يمكنهم أن يقرروا بدء الخلق في هذا العالم من جيل معين معلوم، فإن كل جيل من أجياله، لا بد أن يكون سبقه جيل آخـــر، حـــتى يكون الجيل لآخر نتيجة لأعمال الجيل السابق. وهذا مما يخالف العقل ولا يوافقه.

خذ الآن العقيدة الثالثة، فأول ما جاء في هذه العقيدة، أن الله تعالى قدر يوماً لتقوم فيه الساعة على هذا الكون، فتبدل الأرض غير الأرض والسماوات، فهذا مما لا يرتاب فيه عاقل، وعلى قدر ما يزداد المرء تفكراً في معمل الكون هذا، يزداد معرفة بأنه لا بقاء لـــه. فإن جميع القوى والأدوات التي فيه، محدودة لا بد لها من الفناء يوماً من الأيام، ولأجـــل ذلك فقد أجمع علماء العلوم الطبيعية على أن هذه الشمس ستبرد يوماً من الأيام، وتفقـــد نورها، وأن هذه النجوم والسيارات ستتصادم فيما بينها وتنقرض هذه الدنيا.

ثم جاء في هذه العقيدة أن الإنسان سيؤتى الحياة الأخرى، أفهذا من المـــستحيل ؟ فإن كان ذلك كذلك، فكيف حصلت للإنسان هذه الحياة الـــدنيا ؟.. لا ريـــب أن الله الذي خلق الإنسان في هذه الدنيا، قادر على أن يخلقه مرة أخرى بعد موته.

ثم جاء في هذه العقيدة أن الإنسان تسجل عليه أعماله الحسنة أو السيئة وستعرض عليه في كتاب يلقاه منشوراً يوم القيامة. فهذا مما نجد اليوم ما يثبته.

كان الناس يظنون في الزمن الماضي أن الصوت الذي يخرج من أفواهنا، ينـــدمج في الهواء ويضمحل فيه بعدما يحدث فيه شيء من التموج، ولكن قد عرف أخيراً أن لكـــل صوت أثراً يتركه فيما حوله من الأشياء، ومن الممكن ضبطه وإحياؤه فيما بعد. وعلـــى هذا المبدأ قد أوجد الإنسان الحاكي (الغراموفون) مما يدل على أن كل حركة تصدر عنا في هذه الدنيا، تسجل في أشياء تصدمها بوجه من الوجوه. وإذا علمنا هذا فقد علمنا علم اليقين، أن جميع أعمالنا في هذه الدنيا مسجلة مدونة، ويمكن إحياؤها وإحـــضارها مـــرة اخرى.

والأمر الرابع الذي جاء في العقيدة، أن الله تعالى يجازي عباده على أعمالهم بـــالحق يوم يحشرهم : إن خيراً فخير، وإن شراً فشر. من ذا الذي يمكن أن يقول إن هذا مستحيل ؟ وأي شيء فيه يخالف العقل ؟ بل العقل نفسه يقتضي أن يحشر الله عباده يوماً ويحكـــم بينهم بالحق. ذلك بأننا نشاهد أن الرجل يعمل صالحاً ولا ينال ثوابه في هذه الـــدنيا، أو يعمل السوء ولا يلقى عقابه في هذه الدنيا. بل نحن نشاهد الصالحين قد يصيبهم الـــضرر، والأشرار قد يعيشون عيشه الرفاهة ويرفلون في النعم، فيتطلب العقل بنفسه في مثل هـــذه الحوادث أن يلقى الرجل جزاءه كاملاً في كلا الحالتين : على أعماله الصالحة أو السيئة.

والأمر الأخير في هذه العقيدة وجود الجنة والنار. فما وجودهما بمستحيل، فإذا كان الله تعالى قادراً على أن يخلق الشمس والقمر والمريخ والأرض، فكيف يعجز عـــن خلـــق الجنة والنار ؟ والله تعالى عندما يحشر الناس في محكمته ينبغي أن يكون للذين يثيبهم مقـــام عزة وكرامة ونعيم ومسرة، وللذين يعذبهم مقام ذل وعذاب وحزن وألم.

تفكر في هذه الأمور كلها، تعرف دون شك أن هذه العقيدة هي أقـــرب عقيـــدة للعقل، من بين جميع العقائد، التي توجد اليوم في الدنيا، عن حياة الإنسان بعـــد موتـــه، وليس فيها شيء يخالف العقل أو يكون من المستحيل وجوده.

ثم إذا كان هذا الأمر قد بلغنا على لسان محمد ﷺ — وهـــو في صـــدقه وأمانتـــه وعفافه حيث قد عرفت — وفيه الخير كل الخير لأنفسنا، فإن العقل يقتضي أن نؤمن بـــه، ولا يقتضي أن نرتاب فيه من غير حجة ولا برهان.

الكلمة الطيبة :

هذه هي العقائد الخمس (٧) التي بني عليها الإسلام، وقد لخصت في كلمة واحدة " لا إله إلا الله محمد رسول الله ". فإذا قلت " لا إله إلا الله " أقررت بعبوديتك لإله واحد دون سائر الآلهة الباطلة. وكذلك إذا قلت " محمد رسول الله " صدقت بأن محمداً ﷺ هو رسول من الله إلى عباده، والذي يستلزمه تصديقك بالرسالة المحمدية، أن تؤمن بكل ما بينه محمد صلى الله عليه وسلم، عن وجود الله تعالى، وصفاته، وملائكته، وكتبه، وأنبيائه واليوم الآخر، وتسلك الطريق الذي هدى إليه لعبادة الله واتباع أحكامه وأوامره.

---

(٧) قد ذكرت في هذا المقام خمسة أمور يجب الإيمان بها وهي مأخوذة من قوله تعالى : (آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون) الآية (البقرة : ٢٨٥) ومن قوله تعالى : " (ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم لآخر) (النساء : ١٣٦). ولا شك أن النبي ﷺ قد ذكر " القدر خيره وشره " من الأمور التي يجب الإيمان بها أيضاً، ولكن الحقيقة أن ليس الإيمان بالقدر، إلا جزءاً من أجزاء الإيمان بالله، وعلى هذا قد ذكره القرآن في ضمن بيان التوحيد، ولذلك اكتفيت أن أذكره في ضمن شرحي لكلمة : لا إله إلا الله. وكذلك جاء ذكر الجنة والنار والصراط والميزان في بعض الأحاديث مستقلاً عن الأمور الأخرى التي يجب الإيمان بها، والواقع أنها أجزء للإيمان بالآخرة.

الفصل الخامس

العبادات

قد بينا في الفصل السابق أن النبي محمدا ﷺ أمرنا أن نؤمن :

١- بالله تعالى وحده لا شريك له.

٢- وبملائكته.

٣- وبكتبه، وبالقرآن على الأخص.

٤- وبأنبيائه. وبخاتمهم محمد ﷺ على الأخص.

٥- وبالحياة الآخرة.

هذا هو أساس الإسلام.

إنك إذا آمنت بهذه الأمور الخمسة، فقد دخلت في زمرة المسلمين وأصبحت فرداً منهم، ولكنك لم تستكمل إسلامك بعد، فإن المرء لا يستكمل إسلامه، إلا إذا أطاع ما جاء به النبي ﷺ من الأحكام والأوامر من عند الله تعالى... فإن إيمانك بشيء يستلزمك أن تطيعه. وهذه الطاعة بعد الإيمان هي الإسلام. قد أقررت أن الله وحده هو إلهك، فمعنى ذلك أنه سيدك وأنت عبده، وأنه مالكك وآمرك وناهيك، وأنت المطيع لأمره ونهيه، والقائم عند حدوده. فإذا عصيته بعد ذلك، فقد اقترفت جريمة الخروج على سيدك بموجب إقرارك أنت. ثم إنك قد أقررت بأن القرآن كتاب الله، فمعنى ذلك، أنك اعترفت بأن كل ما في هذا الكتاب هو الحق من عند الله وذلك ما يوجب عليك أن تصدق به وتطيعه في كل أمر من أوامره ونهي من نواهيه. ثم أقررت أن محمداً ﷺ رسول الله، فمعنى ذلك أنك أقررت بأن كل ما يأمرك به النبي ﷺ أو ينهى عنه، إنما هو من عند الله تعالى، وذلك ما يوجب عليك طاعته صلى الله عليه وسلم، لذا فلن تستكمل إسلامك إلا إذا جاء عملك وفقاً لإيمانك، وإلا فعلى قدر ما يكون الفرق بين إيمانك وعملك، يكون إيمانك ناقصاً غير كامل.

وتعال نتبين ذلك الطريق الذي أمر النبي محمد صلى الله عليه وسلم، أن نسلكه لقضاء حياتنا وفقاً لمرضاة الله تعالى. وأول شيء في هذا الكتاب هو " العبادات المكتوبة ".

معنى العبادة :

العبادة : هي العبودية معنىً وحقيقةً. أنت عبد واله معبودك، فكل ما يأتي به العبد في طاعة معبوده هو العبادة. فمثلاً إذا كلمت الناس واجتنبت الكذب والغيبة والفحش والبذاءة في كلامك معهم، لأن الله قد نهاك أن تأتي بهذه الأمور. وتحريت الصدق والعدل والمعروف والخير في كلامك لهم، لأن الله يحب هذه الأمور، فكلامك هذا عبادة لله تعالى

ولو كان كله عن شؤونك الدنيوية. وكذلك إذا عاملت الناس ومشيت في الأسواق مشترياً وبائعاً، وعاشرت أباك وأمك وإخوتك وأهلك، وجالسك أصدقاءك وذوي قرباك، مراعياً في كل ذلك أحكام ربك وقوانينه، وأديت إلى كل ذي حق حقه، لأن الله قد أمرك بأدائه إليه، وما بخست أحداً شيئاً من حقه، لأن الله نهاك عن ذلك، فقد قضيت حياتك هذه كلها في عبادة الله تعالى، وكذلك إذا أحسنت إلى مسكين، أو نصرت مظلوماً، أو أطعمت جائعاً، أو واسيت مريضاً، نصب عينك في كل هذا وجه الله تعالى دون طلب منفعة أو عز أو سمعة ذاتية، عُدّ كل ذلك من عبادتك لله تعالى. وكذلك إذا تعاطيت التجارة أو الصناعة أو اشتغلت بالخدمة وأديت ما عليك من الواجب بكل أمانة وصدق اتقاء لله تعالى. ثم كسبت الحلال وتجنبت الحرام، كان كسبك هذا وسعيك في سبيله عبادة لله تعالى، مع أنك ما قمت بكل ذلك إلا لتكسب الرزق لنفسك.

وجملة القول، أن خوفك لله تعالى في كل شأن من شؤون حياتك، وفي كل حين من أحيانك، وجعلك مرضاة الله نصبك عينيك، واتباعك لقانونه، ورفضك لكل منفعة تنالها أو يمكن أن تنالها بمعصيته، وصبرك على كل مضرة تصيبك أو يمكن أن تصيبك بطاعته، ذلك كله من عبادتك لله تعالى، وحياتك بهذا الطريق من أولها إلى آخرها عبادة، وليس الأكل والشرب والنوم واليقظة والقعود والقيام والمشي والكلام والسكوت إلا من العبادة في حياة كهذه.

هذه هي العبادة وهذا هو معناها الحقيقي. وما غرض الإسلام إلا أن يجعل الإنسان يعبد الله مثل هذه العبادة في كل حين من أحيانه، وقد افترض عليه لهذا الغرض مجموعة من العبادات تهيئة لهذه العبادة الكبيرة، فكأنه ليست هذه العبادات المفروضة، إلا بمثابة هذه التربية للعبادة الكبيرة المنشودة. فكل من يتلقى هذه التربية على أحسن وجه، يؤدي العبادة الحقيقية على الوجه المراد. ومن أجل ذلك جعلت هذه العبادات عين الفريضة في الإسلام، وقيل إنها أركان الدين أي دعائمه التي يقوم عليها بناؤه. فكما أن كل بناء لا يقوم إلا على مجموعة من الدعائم، كذلك لا يقوم بناء الحياة الإسلامية إلا على هذه الدعائم. فمن هدمها، فقد هدم بناء الإسلام نفسه.

الصلاة :

الركن الأول من أركان الإسلام " الصلاة ". وما الصلاة في حقيقة الأمر إلا أن تعيد بلسانك وأعمالك، خمس مرات في الليل والنهار، ذكر ما قد آمنت به، فإذا استيقظت صباحاً، مثلت بين يدي ربك طاهراً نظيفاً قبل أن تشتغل بشيء آخر، ثم أقررت بين يديه بعبوديتك له قائماً وقاعداً، وراكعاً وساجداً، واستعنته واستهديته، وجددت ما بينك وبينه من ميثاق الطاعة والعبودية، وأعدت مرة بعد مرة أمنيتك في نيل رضاه والابتعاد عن غضبه، وأعدت درس كتابه، وشهدت بصدق رسوله، وذكرت يوماً

ترجع فيه إلى محكمته لتسأل فيها عن أعمالك، ثم تنال عليها الجزاء الذي تستحقه... بهذا يبتدئ نهارك. ثم إذا اشتغلت ساعات بأعمالك، ناداك المؤذن أن هلم إلى ذكر الله، وأعد درسك مرة أخرى، لئلا تنساه وتكون من الغافلين، فنهضت من مكانك، وبعد أن جددت الإيمان، رجعت إلى الدنيا واشتغلت بشؤونها، ثم ناداك المؤذن مرة ثالثة لصلاة العصر بعد ساعات، ثم إذا أدبر النهار وأقبل الليل، بدأت ليلك بما كنت بدأت به نهارك، من ذكر الله تعالى وعبادته، كيلا تنسى درسك في الليل. ثم إذا جاء وقت النوم بعد قليل، صليت صلاة العشاء، وذكرت ربك للمرة الأخيرة، فإنه وقت الهدوء والطمأنينة، ولك أن تتمتع فيه من الهدوء والسكينة، بما عسى أن يكون قد فاتك في ضوضاء النهار وغوغاء المعاش.

إن الصلاة هي التي لا تنفك تدعم أساس إسلامك خمس مرات في كل يوم، وتعدك للعبادة الواسعة الحقيقية التي قد ذكرناها لك آنفاً. وهي التي تذكرك دائماً بالعقائد التي تنحصر فيها طهارة نفسك، وارتقاء روحك، وصلاح أخلاقك وأعمالك. أفرأيت لماذا تتبع في وضوئك ذلك الطريق الخاص الذي علمه الرسول صلى الله عليه وسلم، ولماذا تقرأ في صلاتك بتلك الكلمات التي علمها الرسول ﷺ ؟ أليس ذلك لأنك ترى طاعة الرسول واجبة في نفسك، ولماذا لا تخطئ عمداً فيما تقرأ من القرآن في صلاتك ؟ أليس ذلك لأنك موقن بأن القرآن كتاب الله ؟ ومن ذا الذي تخشاه إذا قرأت في صلاتك بكلمات غير الكلمات التي علمها الرسول أو لم تقرأ بها أصلاً ؟ وما هناك من أحد من البشر يسمعك تقرأ في صلاتك بشيء أو لا تقرأ ؟ أليس ذلك لمجرد علمك أن الله يسمعك، ولا يخفى عليه أمرك عندما تقرأ خفية في نفسك ؟ وما الذي يوقظك من النوم ويدعوك إلى الصلاة حيث لا يراك أحد ؟ أفهو غير اعتقادك أن الله يراك ؟ وما الذي يدعوك إلى أن تذر ما تكون فيه من شغلك وتسعى إلى الصلاة إذا جاء وقتها ؟ أفليس هو شعورك بأن الله هو الذي فرض عليك هذه الصلاة ؟ وما الذي يجبرك على الصلاة وقت الصبح شتاء، ووقت الظهيرة صيفاً، ووقت اللعب والطرب مساء كل يوم ؟ أفهذا شيء غير شعورك بالواجب ؟ ثم لماذا تخاف إذا لم تُصلّ، أو إذا أخطأت في صلاتك عمداً ؟ أفلذلك سبب غير أنك تخاف الله، وتعلم أنك سترجع إليه وتقوم بين يديه يوم القيامة ؟ قل لي بالله بعد كل ذلك : هل يمكن أن تكون في الدنيا تربية خير من الصلاة تجعل المرء مسلماً حقاً ؟ وهل يمكن أن تكون للإنسان تربية خير من أن يجدد ذكر الله تعالى وخشيته، واليقين بكونه خبيراً بصيراً، والاعتقاد بالحضور في محكمته يوم القيامة، ويتبع الرسول عدة مرات في ليله ونهاره، ويتدرب على القيام بالواجب بعد كل ساعات من يومه وليله ؟ إن هذا الإنسان يرجى منه عندما يشتغل بأمور معاشه بعد خروجه من المسجد أن يخاف الله، ويتبع قانونه، ويتذكر عند كل خطيئة يزينها الشيطان في قلبه أن الله ناظره ولا يخفى عليه أمر من أموره. أما إذا كان المرء لا يخاف الله ولا يكف يده عن معصيته ومخالفة أحكامه

حتى بعد هذه التربية العالية، فما ذلك لسقم في أصل التربية، وإنما ذلك لما في نفس هــذا الإنسان وطبيعته من الفساد والخبث والشر.

ثم إن الله قد أكد تأكيداً شديداً، أن يؤدي المسلمون فريــضة الــصلاة جماعــة، وافترض عليهم أن يؤدوا صلاة الجمعة في كل أسبوع بالجماعة علــى الوجــه الخــاص. فالصلاة جماعة تنشيء الاتحاد والمحبة والإخاء بين المسلمين، وتجعل منهم كتلة متراصــة، فإنهم عندما يجتمعون ويقنتون لربهم ويسجدون له ويركعون معاً تأتلف قلــوبهم، وينــشأ فيهم الشعور بأنهم إخوة فيما بينهم، ثم إن الصلاة في جماعة تدربهم علــى طاعــة أمــير ينتخبونه من بين أنفسهم، وتربيهم على النظام والانضباط والمحافظة على الأوقات، وتنشئ فيهم المواساة والتراحم والمساواة والائتلاف، فتراهم جميعاً غنــيهم وفقيرهــم وكــبيرهم وصغيرهم، وأعلاهم وأدناهم، يقومون جنباً إلى حنب، فلا شريف فــيهم ولا دنيء، ولا رفيع ولا وضيع.

هذا نزر يسير مما تعود به الصلاة على أنفسكم، لا على ربكم، من المنــافع. والله تعالى لم يفترض عليكم الصلاة إلا لصالحكم أنتم. وما غضبه عندما لا تؤدونها لأنكم قــد أصبتموه بشيء من الضرر، بل لأنكم ظلمتم أنفسكم. أنظروا أية قوة عظيمة ينعم بها الله عليكم بواسطة الصلاة، ثم أنتم معرضون ؟ فيا للخجل ! تقرون بألسنتكم بألوهية الإلــه وطاعة الرسول ومسؤولية الآخرة، ثم لا تؤدون أكبر واجب قد فرضه عليكم ربكم ؟ إن أمركم أحد اثنين : إما أنكم تنكرون أن الصلاة فريضة من الله، أو تقرون بكونها فريــضة من الله ولكنكم تعرضون عن أدائها. فإن كنتم تنكرون أنها فريــضة، فــإنكم تكــذبون بالقرآن، وتكذبون الرسول صلى الله عليه وسلم، فما دعواكم بالإيمان بهمــا إلا دعــوى كاذبة. وإن كنتم لا تؤدونها مع إقراركم بكونها فريضة من الله، فكفى به أن يذهب عــن قلوب الناس الثقة بأمانتكم : تخونون فريضة الله عليكم، فكيف يرجى منكم ألا تخونــوا حقوق الناس وأمانتهم ؟.

الصوم :

والركن الثاني من أركان الإسلام " الصوم ". وما أدراك ما الــصوم ؟ إن الــدرس الذي تذكر به الصلاة خمس مرات في الليل والنهار، يذكّر به الصوم في كل حــين مــن الأحيان مدة شهر كامل من السنة. فإذا جاء رمضان، انقطعت عن الأكل والشرب مــن الفجر إلى المساء. وبينما أنت تأكل وتشرب، إذا بالصبح يلج، وإذا بــك تــسمع الأذان فتمسك يدك عن طعامك وشرابك دفعة واحدة، ومهما جاءك بعدئذ من طعــام شــهي وشراب هنيء واشتد بك الجوع والعطش، فإنك لا تقربهما حتى غــروب الــشمس. ولا يقف الأمر عند امتناعك عن الطعام والشراب أمام أنظار الناس، بل لا تقربهمــا حــتى في وحدتك، التي لا يرك فيها أحد. ففي أثناء هذه الساعات — من الفجر إلى غروب الشمس

– لا تتجرّع جرعة من الماء، ولا تبتلع لقمة من الطعام. ولكن هذا الامتناع عن الطعام والشاب لا يمتد إلا إلى حين محدد، فإذا غربت الشمس وسمعت أذان المغرب، أسرعت إلى الإفطار، وأقمت الليل تأكل وتشرب ما تشاء هنيئاً مريئاً. تفكر ! ما هذا الذي تصنع ؟ لا شك أن من ورائه خشية الله تعالى واليقين بكونه خبيراً بصيراً، والإيمان باليوم الآخر والحضور في محكمة الله، والطاعة الشديدة للقرآن والرسول، والشعور القوي بالواجب، والمران على الصبر والتجلد، والقدرة على التغلب على الشهوات النفسانية. يأتيك شهر رمضان كل عام، ليعنى بتربيتك ثلاثين يوماً كاملاً على هذه الصفات والأخلاق العالية، حتى تكون مسلماً كاملاً حقاً، وتجعلك هذه الصفات والأخلاق قابلاً للقيام بالعبادة الحقيقية، التي يجب أن يؤديها المسلم في كل لحظة من لحظات حياته.

ثم إن الله تعالى لم يفترض الصيام على المسلمين جميعاً إلا في شهر واحد بعينه، ليصوموا جميعاً لا متفرقين. وفي ذلك أيضاً كثير من المنافع، فإذا جاء شهر رمضان، أظل المجتمع المسلم كله جو من الطهارة والنظافة والإيمان وخشية الله وطاعة أحكامه ودماثة الأخلاق وحسن الأعمال، وكسدت سوق المنكرات، وعم انتشار الخيرات والحسنات، وبدأ الصالحون من عباد الله يتعاونون فيما بينهم على أعمال البر والإحسان، وبدأ يعتري الأشرار الخجل من اقتراف المنكرات، ونشأت في الأغنياء عاطفة المساعدة لإخوانهم الفقراء والمساكين، وبدأوا ينفقون أموالهم في سبيل الله، وأصبح المسلمون جميعاً في حالة متماثلة، وكل ذلك يكون فيهم الشعور العام بأنهم جميعاً جماعة واحدة. وتلك وسيلة ناجعة لتنشأ فيهم عاطفة التحاب والإخاء والمواساة والتعاون والوحدة.

ولا ترجع هذه المنافع كلها إلا على أنفسنا، وما لله من فائدة في إجاعتنا، وهو لم يفترض علينا صيام شهر رمضان إلا لصالحنا، فالذين لا يؤدون هذه الفريضة بغير ما سبب، إنما يظلمون أنفسهم. وأكثر منهم وقاحة وأشنع منهم طريقة، أولئك الذين يأكلون ويشربون في شهر رمضان علناً بلا احتشام ولا خجل، كأنهم يعلنون أن لسنا من جماعة المسلمين ولا نحفل بأحكام دينهم، بل نحن من الذين لا يشق عليهم الخروج من جماعة المسلمين، ولا يأخذهم الخجل من الخروج على خالقهم ورازقهم، ولا يتحرجون عن مخالفة القانون الذي أوجبه عليهم زعيمهم الأكبر صلى الله عليه وسلم، فكيف يرجى فيهم شيء من الوفاء والأمانة والأخلاق والشعور بالواجب والمحافظة على القانون ؟!

الزكاة :

والركن الثالث من أركان الإسلام " الزكاة ". والله تعالى قد فرض على كل فرد من أفراد المسلمين إذا زاد ماله عن النصاب وجال عليه الحول (العام) الكامل، أن تؤدى زكاته إلى رجل من الفقراء أو المساكين أو أبناء السبيل أو المهتدين إلى الإسلام أو الغارمين أو في سبيل من سبل الله.

فهكذ جعل الله تعالى في أموال الأغنياء من المؤمنين حقاً معلوماً للفقراء وقدره ٢،٥ على اختلاف أنواع الأموال، ومن تطوع فوق ذلك، فهو خير له وأعظم أجراً.

وهذا الحق أو النصيب المعلوم، لا ينال الله تعالى، وما هو بحاجة إليه. ولكنه يقـــول لعباده : إنكم إذا تصدقتم بشيء على أخيكم المسكين لأجلي وابتغاء لـــوجهي، بطيـــب خاطر وانشراح صدر منكم، فقد تصدقتم به عليّ، ولكن على ألا تمنوا عليه ولا تـــؤذوه ولا تحقروه، ولا ترجوا منه جزاء ولا شكوراً، ولا تقوموا بذلك ليعلم الناس صـــدقاتكم ويتذاكروها ويشيروا إليكم بالبنان. فإن أديتم إلى الفقراء والمساكين والمحتاجين، مـــا قـــد جعلت لهم من نصيب في أموالكم، مطهرين قلوبكم من مثل هذه الأفكار الباطلة والظنون السافلة، أعطيتكم من أموالي العظيمة نصيباً لا ينفذ ولا يبلى.

إن الله قد افترض علينا هذه الزكاة، كما افترض علينا الصلاة والصيام، وهي ركن مهم من أركان الإسلام، لأنها تحلي بالمسلمين بأوصاف التضحية والإيثار لوجه الله تعالى، وتزيل عن قلوبهم الأثرة وحب الذات وضيق الصدر وعبودية المال وما إليها من الـــصفات الدنيئة الأخرى. لا حاجة للإسلام إلى البخيل الشحيح، الذي يعبد المال ويتكالب عليـــه فإنه لا ينفعه في قليل ولا كثير. ولا يهتدي إلى الإسلام ويتبع طريقه المـــستقيم ويـــسلكه سلوكاً مستمراً إلا من إذا جاءه أمر من أوامر الله ضحى في سبيله بماله الذي اكتسبه بعرق جبينه بدون أدنى غرض ذاتي. والزكاة تروض المسلم على هذه التضحية، وتجعله قابلاً لئلا يثّاقل إلى أمواله، ولا يجعل يده مغلولة إلى عنقه إذا بلغ الأمر مبلغ الجد، واقتضى بذل المال بل ينفقها بكل انشراح وطيب خاطر منه.

ومن فوائد الزكاة في الدنيا أن يتناصر المسلمون ويتكافؤا فيما بينهم، حتى لا يبقى فيهم عار ولا جائع ولا مهين، ويكفل غنيهم فقيرهم، ويعاف فقيرهم أن يبسط يـــده إلى الغني بالاستمداد، ولا ينفق أحد أمواله في البذخ والترف، ويعلم أن في أمواله حقاً لليتامى والأيامى والفقراء والمساكين من أبناء أمته، وأن فيها حقاً للذين يقدرون على العمل ولكن لا يجدون إليه سبيلاً لما يعوزهم من المال وأن فيها حقاً للأطفال الذين فطروا على الذكاء والفطنة ولكن لا يقدرون على تحصيل العلم بسبب فقرهم، وأن فيها حقاً للعجزة الذين لم يعودوا قادرين على العمل. فكل غني لا يعترف في ثروته بهذه الحقوق، ظالم. وأي ظلـــم أشنع من أن يكون عندك من الثروة الضخمة وأسباب الترف والرفاه ما لا يكاد يأتي تحت الحصر، وتترفل في قصورك الشامخة، وتتنعم بركوب سيارتك الفاخرة، وحولك ألوف من إخوانك الفقراء، الذي لا يكادون يجدون سبيلاً إلى كسرة من الخبز، وألوف من القادرين على العمل، يهيمون على وجوههم عاطلين. إن الإسلام يبغض مثل هذا الرجل ويحـــارب عاطفة أثرته. وما هذه الأثرة إلا من شيمة الكفار، الذي تعلمهم مدنيتـــهم أن يـــدخروا عندهم كل ما تصل إليه أيديهم من الثروة ويربوا بها، ويجلبوا منها إلى أنفسهم كل ما في أيدي الناس الآخرين. أما المسلمون، فيعلمهم دينهم أنه إذا وهب الله لكم من الرزق مـــا

زاد عن حاجتكم، فلا تكنزوه، وأعطوه إخوانكم الذين يفقدونه، ليسدوا حاجاتهم ويعودوا قادرين على كسب معيشتهم كما تكسبون معيشتكم أنتم.

الحج :

والركن الرابع من أركان الإسلام " الحج " وما فرضه الإسلام إلا على الذين يستطيعون السبيل إلى مكة من أغنياء المسلمين، وما فرضه عليهم إلا مرة في عمرهم.

بنى خليل الله إبراهيم # ، بيتاً صغيراً لعبادة الله قبل بضعة آلاف من السنين، حيث تقع اليوم مكة المكرمة، فتقبل الله تعالى سعيه، وشكر حبه وإخلاصه، حتى نسب هذا البيت إلى نفسه، وقال : من أراد أن يعبدني فعليه أن يعبدني مولياً وجهه إلى هذا البيت، ومن استطاع السبيل إلى هذا البيت، فعليه أن يزوره مرة في عمره على الأقل، ليطوف به بمثل الحب الذي كان يطوفه به عبدي وخليلي إبراهيم عليه الصلاة والسلام. وكذلك، أمر الله تعالى إذا نويتم الحج، وخرجتم من بيوتكم مريدين هذا البيت الحرام، فطهروا قلوبكم، واكبحوا شهواتكم النفسية، واجتنبوا الفسوق والجدال وسفك الدماء والفحش من الكلام، وأتوه بما يجب عليكم أن تكونوا عليه عندما تمثلون بين يدي ربكم من الأدب والاحترام والعجز والخشوع، واعلموا أنكم متوجهون إلى ذلك المقتدر الذي لك ملك السماوات والأرض وما بينهما، والذي يفتقر إليه كل من سواه. واعلموا أنكم إذا مثلتم بين أيدينا بمثل هذا العجز والضراعة والخشوع والإخلاص، وأديتم ما عليكم من عبادتنا بإنابة القلب وصفاء النية، فإنا سنعطيكم من عندنا أجراً عظيماً.

وإذا نظرت في الحج بنظرة أخرى، فإنه أهم عبادة لله تعالى وأعظمها شأنا، فلماذا يفارق الإنسان عمله وتجارته وأبناءه وأصدقاءه. ويعاني وعثاء السفر الطويل ومشقاته، إن كان قلبه حالياً من حب الله تعالى ؟ إن نفس قصد الإنسان عندما يخرج من بيته ويبدأ الرحلة إلى بيت الله الحرام، لا يكون شأنه فيها في عامة الرحلات، فإن جلّ همه يكون في هذه الرحلة منصرفاً إلى الله تعالى، وتزداد في قلبه عواطف الحب والاشتياق إلى بيته الحرام. وعلى قدر ما ينطوي عليه بعد السفر، ويشعر بدنو الكعبة، تزداد فيه عاطفة الحب، وتتضاعف جاذبية الشوق، وينفر قلبه من الذنوب والمعاصي ويندم على ذنوبه السالفة، ويدعو ربه، ويتضرع إليه أن يوفقه لطاعته في الأيام الباقية من حياته، ويبدأ يشعر بلذة غير عادية في ذكر الله تعالى وعباداته، ويسجد سجدات طويلة لا يطيب له أن يرفع منها رأسه. وكذلك عندما يتلو القرآن، فشتان بين ما يحسه من اللذة وما كان يحسه منها من قبل. وعندما يصوم يجد حلاوة ما كان يجدها من قبل. ثم عندما يدخل أرض الحجاز ويطأها بقدمه، يتمثل في عينيه تاريخ الإسلام في مراحله الأولى، ويشاهد في كل بقعة من بقاع تلك الأرض الطاهرة، آثار الذين رضي الله عنهم ورضوا عنه، وأحبهم وأحبوه، وضحوا في سبيله بأموالهم وأنفسهم، وتشهد له كل ذرة رمليّة في تلك البقعة بعظمة

الإسلام، وتنطق كل حصاة من حصاها بأن هذه هي الأرض المقدسة التي بدأ منها الإسلام وانبثق منها نوره وعلت منها كلمته. فهكذا يمتلئ قلب المسلم ولعاً بالله تعالى، وحبا لدينه. وعندما يرجع إلى وطنه، يجد في قلبه أثراً من آثار الإسلام لا يمحى إلى آخر أيام حياته.

والحج فيه كثير من المنافع الدنيوية، إلى هذه المنافع الدينية. فمنها أن مكة المكرمة قد جعلت مركزاً للمسلمين، تهوي إليه نفوسهم من جميع نواحي الأرض، على اختلاف سلالاتهم وأوطانهم، فيشعرون أنهم أخوة فيما بينهم وأنهم لا يؤلفون بمجموعهم إلا أمة واحدة، فكأن الحج هو عبادة الله تعالى في جانب، ومؤتمر عالمي سنوي يفد إليه المسلمون من جميع نواحي الأرض وأقطارها بالجانب الآخر فهو أكبر وسيلة وأنجح طريقة، لتربية الأخوة الإسلامية العالمية، على الاتحاد والمحبة والتعاون.

حماية الإسلام :

وآخر فرائض الله على عباده هي " حماية الإسلام ". وهذه الحماية، وإن لم تكن من أركان الإسلام، ولكنها فريضة مهمة من فرائض الإسلام، وقد أبدأ وأعيد في ذكرها في الكتاب والسنة في غير موضع. فما هي حماية الإسلام ؟ ولماذا افترضها الله على المسلمين ؟ يمكن أن تعرف بمثل أضربه لك لهذا الغرض. هب أن لديك رجلاً يدعي أنه صديقك ومحبك، ولكن يشهد عمله عند كل بلاء يترل بك أنه لا يحبك، ولا يبالي بما أنت فيه من الشدة، ولا يهمه نفعك أو ضرك، ولا يتحرج أن يأتي لمنفعته الذاتية بكل عمل يجلب إليك الضرر والشدة، ويقعد عن كل عمل فيه منفعتك، لأنه لا يجد فيه سبيلاً إلى منفعته الذاتية، ولا يمد إليك يد المساعدة عند المصيبة، بل يشارك ويشجع الذين يذمونك ويطعنون فيك، أو يسكت على الأقل عن ردعهم عن ذمك، ويساعد أعداءك عندما يكيدون لك، أو لا يحاول إنقاذك من الوقوع في مكايدهم على الأقل – فهل لك أن تظن هذا الرجل هو صديقك ومحبك، وتصدقه في دعواه ؟ كلا ؟! فإنه يدعي بصداقته لك بلسانه، ولا يحبك من قلبه في حقيقة الأمر. إن الصداقة معناها أن يحب الإنسان صديقه من قلبه، ويخلص له، ويواسيه ويواليه. ويشاطره كل ما يحل به من الفرح أو الترح، ويناصره على أعدائه، ولا يرضى أن يسمع أحد يذكره بسوء وإذا لم يكن في المرء كل هذا، فهو منافق كاذب في دعواه.

فقس على هذا المثال ما يجب عليك إذا ادعيت أنك مسلم. أن هذه الدعوة معناها أن تكون فيك الحمية الإسلامية، والغيرة على الإيمان. وحب الدين، والنصح الصادق لإخوانك المسلمين، ويكون نفع الإسلام وخير المسلمين نصب عينيك في كل ما يأتي به من عمل في هذه الدنيا، ولا يصدر عنك عمل مضر للإسلام مخالف لأحكامه، ومقاصده تحقيقاً لمصلحة من مصالحك أو دفعاً لآفة من آفاتك الذاتية. وكذلك يجب عليك أن

تشارك بنفسك ومالك في كل عمل فيه خير للإسلام والمسلمين، وتبتعد عن كل عمل يضر الإسلام والمسلمين، ولا تعتبر عزتك إلا في عزة الإسلام والمسلمين، ولا تصبر على مذلة الإسلام والمسلمين كما لا تصبر على مذلة نفسك، ولا تعاون أعداء الإسلام والمسلمين كما لا تعاون أعداء نفسك، وتكون مستعداً لكل نوع من التضحية بنفسك ومالك دفاعاً عن الإسلام وذوداً عن كيان المسلمين، كما تكون مستعداً لكل نوع من التضحية دفاعاً عن نفسك. ينبغي أن يكون كل من يقول : إني مسلم متصفاً بهذه الصفات، وإلا عد من المنافقين، وشهد عليه عمله بأنه كاذب في دعواه اللسانية.

ومن شعب " حماية الإسلام " هذه " الجهاد في سبيل الله " المعروف في الإسلام، فإن كلمة " الجهاد " معناها لغة بذل الجهود واستنفاد القوى في أي أمر من الأمور، وهكذا فكل من يسعى لإعلاء كلمة الإسلام بما عنده من المال والنفس والقلم واللسان، فإنه يجاهد في سبيل الله من غير شك بمعنى الجهاد العام، ولكن تطلق هذه الكلمة بمعناها الخاص على الحرب التي يقوم بها المسلمون في وجوه أعداء الإسلام، لا لسبب غير ابتغاء وجه ربهم، متجردين عن كل غرض من أغراضهم الدنيوية. فهذا الجهاد فرض كفاية على المسلمين في الشريعة الإسلامية، أي أنه وإن كانت ترجع التبعة فيه على المسلمين جميعاً، ولكنها تسقط عنهم، إذا قامت به جماعة منهم، وأدته عن سائرهم. غير أنه إذا هجم الأعداء على قطر من الأقطار الإسلامية، أصبح هذا الجهاد فرض عين على أهل ذلك القطر كالصلاة والصوم. وإذا كانوا غير قادرين على الدفاع عن أنفسهم، فواجب على كل فرد من مسلمي الأقطار التي تجاور أرضهم أن ينصرهم بماله ونفسه. وإذا لم تنكسر حملة الأعداء حتى ولا بعد نصرهم، عاد نصرهم فرض عين على مسلمي الدنيا جميعاً كالصلاة والصوم، أي أنه إذا تقاعس عن نصرهم أحد منهم في أي قطر من الأقطار، كان آثماً. وفي مثل هذه الأحوال، يصبح " الجهاد في سبيل الله " أكثر أهمية وأعظم خطورة من الصلاة والصوم، فإن الإيمان يُختبر في الجهاد، فالذي لا يناصر الإسلام، ولا يجاهد مع المسلمين، حتى في حين البلاء والشدة، فإنه مشكوك في إيمانه مرتاب في إسلامه وأي فائدة تحصل له من صلاته وصومه إذ ذاك ؟ أما المسلم الذي يناوئ الإسلام ويمالئ على المسلمين أعداءهم، فهو الشقي الذي لا شك في نفاقه، قد حبطت صلاته وصومه وزكاته وحجه.

الفصل السادس

الدِين وَالشَريعَة

إن كل ما بينا لك حتى الآن في الفصول السابقة، كان من الدين. وها نحن نريد أن نبين لك الآن شيئاً عن شريعة محمد صلى الله عليه وسلم. ولكن ينبغي لك قبل أن تعرف ما هي الشريعة، أن تعرف ما هو الفرق بين الدين والشريعة.

الفرق بين الدين والشريعة :

بينا لك أن جميع الأنبياء الذين أرسلهم الله تعالى، ما علموا الناس إلا الدين الإسلامي، وهو أن تؤمن بذات الله تعالى وصفاته واليوم الآخر على الوجه الذي هدى إليه هؤلاء الأنبياء، وأن تؤمن بكتب الله وتصدق بها، ولا تتبع إلا ذلك الطريق المستقيم الذي قد أوضحته هذه الكتب، وأن تتبع رسل الله الصادقين ولا تتبع غيرهم، وأن توحد الله ولا تشرك بعبادته أحداً.

ويأتي بعد هذا الدين شيء آخر هو " الشريعة " أي طرق العبادة ومبادئ المعيشة والاجتماع، وقوانين ما بين العباد من المعاملات والعلائق، والحدود بين الحلال والحرام. فالله تعالى أرسل في بدء لأمر بشرائع مختلفة إلى أنبيائه، مراعياً في ذلك أحوال مختلف الأمم وأزمانها، ليربوا كلاً من هذه الأمم على حدة، على الأخلاق والمدنية والحضارة ويهيؤوها جمعاء لاتباع " قانون شامل " من ربهم. فلما تم كل ذلك على أيدي مختلف الأنبياء السابقين، جاء في آخرهم سيدهم وخاتمهم محمد صلى الله عليه وسلم، بذلك القانون الشامل الذي صيغت مواده للدنيا كلها إلى يوم القيامة. فليس الدين الآن، إلا نفس الدين الذي علمه وهدى إليه الأنبياء السابقون، ولكن نسخت شرائعهم، وأقيمت مكانها شريعة كامله لا تختلف فيها طرق العبادة، ومبادئ المعيشة، وقوانين ما بين العباد من المعاملات والحدود بين الحلال والحرام وللناس جميعاً إلى يوم القيامة.

وسائل معرفة أحكام الشريعة :

وعندنا وسيلتان لمعرفة مبادئ الشريعة المحمدية وأحكامها : القرآن والسنة. أما القرآن فإنك تعرف أنه كلام الله، وكله لفظةً لفظةً من عنده تعالى، أما السنة، فالمراد بها الروايات التي جاءت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم. فلقد كانت حياة الرسول صلى الله عليه وسلم، من أولها إلى آخرها شرحاً للقرآن، وما زال ﷺ منذ بعث إلى الناس وجاءه الوحي، مشتغلاً بتعليم الناس وإرشادهم إلى الطريق المرضي عند الله لقضاء حياتهم، مدة ٢٣ سنة متوالية. ففي هذه المدة غير اليسيرة، ما زال أصحابه من الرجال والنساء،

وعشيرته الأقربون، وأزواجه المطهرات، يستمعون إلى كلامه بغاية من الاهتمام، ويتبعون أعماله، ويستفتونه في كل ما يعرض لهم في حياهم من مختلف الشؤون والمعاملات، فتارة يأمرهم بشيء وأخرى ينهاهم عن شيء آخر، فيعي الشاهدون أوامره ونواهيه وأحكامه، ويبلغونها الغائبين، وكذلك إذا جاء النبي ﷺ بعمل خاص، وعاه عنه الشاهدون وبلغوه الغائبين : وكذلك كان إذا أتى رجل في صحبته ﷺ بعمل، إما أن يسكت عليه أو ينهاه عنه، فكان الناس يحفظون عنه مثل هذه الأمور أيضا. والذين جاؤوا من بعدهم واتبعوهم بإحسان، حفظوا عنهم كل ما سمعوهم يحدثونه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم دونوا هذه الأحاديث كلها في الكتب، مع ذكر أسماء الذين رووها عن رسول الله ﷺ من أصحابه، وهكذا أصبحت في أيدي الناس مجموعة كبيرة من أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم. وأشهر هذه الكتب وأكثرها اعتماداً الكتب التي دونها الإمام البخاري، والإمام مسلم، والإمام مالك، والإمام الترمذي، والإمام أبو داود، والإمام ابن ماجه، والإمام النسائي.

الفقه :

وقد استعرض جماعة من كبار أئمة المسلمين أحكام القرآن والسنة، ورتبوا بناء عليها قوانين الإسلام المفصلة المنتشرة في الكتب، يريدون بذلك تهيئتها بسهولة لعامة المسلمين، وهذه القوانين المستنبطة من أحكام القرآن والسنة، هي التي تعرف " بالفقه " لا يمكن لكل فرد من أفراد الأمة أن يستنبط الأحكام من القرآن ما لم يكن عنده من العلم بالسنة ما يتمكن به من معرفة أحكام الشريعة بنفسه، فلا يمكن لمسلمي الدنيا جميعاً أن يتبرأوا مما في أعناقهم من الجميل لهؤلاء الأئمة الكبار، الذين عانوا المشاق ورتبوا لهم كتب الفقه، بعد تحقيق مستمر وجهود مضنية متوالية. ولا شك أنه من نتائج جهود هؤلاء الأئمة الكرام، ما يجد عامة المسلمين اليوم من السهولة في اتباع الشريعة الإسلامية ومعرفة أحكامها.

وكان قد رتب كتبه الفقه رجال كثيرون على أساليبهم في بدء الأمر. ولكن بقي في آخر الأمر أربعة مذاهب فقهية، وهي التي يتبعها اليوم معظم مسلمي لأرض.

١ - **الفقه الحنفي** : رتبه الإمام أبو حنيفة " بمساعدة ومشاورة أصحابه كأبي يوسف ومحمد وزُفر وغيرهم من العلماء الكبار الآخرين.

٢ - **والفقه المالكي** : رتبه الإمام مالك بن أنس " .

٣ - **والفقه الشافعي** : رتبه الإمام محمد بن إدريس الشافعي " .

٤ - **والفقه الحنبلي** : رتبه الإمام أحمد بن حنبل " .

وقد تمّ ترتيب هذه المذاهب الفقهية الأربعة، في القرنين الأولين بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإن الاختلافات التي توجد فيما بينها اختلافات فطرية، فإن كل أمـــر إذا تعرض له عدة رجال وحاولوا أن يعرفوا حقيقته، فلا بد أن تأتي آراؤهم فيه مختلفة فيمـــا بينها ولو على قدر يسير، ولكن لما كان الجميع أئمة بررة صادقين ورعين، يتبعون الحـــق ولا يرضون عنه بديلاً، فالمسلمون جميعاً يعتقدون صدق مذاهبهم وكونها على الحق.

ولكن من الظاهر أنه لا يمكن أن يتبع الإنسان في أمر من أموره إلا مذهباً واحـــداً من هذه المذاهب الأربعة، فالذي عليه أكثر علماء المسلمين، أن المسلمين ينبغـــي لهـــم أن يتبعوا أحد هذه المذاهب... غير أن هناك جماعة من العلماء يقولون بأن لا حاجة إلى اتباع مذهب فقهي بعينه. بل يجب على من أوتي العلم أن يستنبط الأحكام من القرآن والـــسنة مباشرة، وأما الذين لا علم عندهم ولا يقدرون أن يستنبطوا الأحكام من القرآن والـــسنة بأنفسهم، ؛ فعليهم أن يتبعوا كل ما يرونه على الحق ويطمئنون إلى علمه وصدقه وتقـــواه من علماء المسلمين. فيعرف هؤلاء الجماعة بأهل الحديث، وهم على الحق مثل الطوائـــف الأربعة المذكورة.

التصوف :

إن علاقة الفقه إنما هي بظاهر عمل الإنسان فقط، ولا ينظر إلا هل قمت بما أمرت به على الوجه المطلوب أم لا ؟ فإن قمت، فلا همه حال قلبك وكيفيته، أما الشيء الذي يتعلق بالقلب ويبحث عن كيفيته، فهو التصوف. إن الفقه لا ينظر في صلاتك مـــثلا إلا هل قد أتممت وضوءك على الوجه الصحيح أم لا ؟ وهل صليت مولياً وجهـــك شـــطر المسجد الحرام أم لا ؟ وهل أديت أركان الصلاة كلها أم لا ؟ وهل قـــرأت في صـــلاتك بكل ما يجب أن تقرأ فيها أم لا ؟ فإن قمت بكل ذلك، فقد صحت صلاتك بحكم الفقه. إلا أن الذي يهم التصوف هو ما يكون عليه قلبك حين أدائك هذه الصلاة من الحالـــة : هل أنبت فيها إلى ربك أم لا ؟ وهل تجرد قلبك فيها عن هموم الـــدنيا وشـــؤونها أم لا ؟ وهل أنشأت فيك هذه الصلاة خشية الله واليقين بكونه خبيراً بصيراً، وعاطفة ابتغاء وجهه الأعلى وحده أم لا ؟ وإلى أي حد نزهت هذه الصلاة روحك ؟ وإلى أي حد أصـــلحت أخلاقك ؟ وإلى أي حد جعلتك مؤمناً صادقاً عاملاً بمقتضيات إيمانك ؟ فعلى قـــدر مـــا تحصل لك هذه الأمور – وهي من غايات الصلاة وأغراضها الحقيقيـــة – في صـــلاتك، تكون صلاتك كاملة في نظر التصوف، وعلى قدر ما ينقصها الكمال من هذه الوجهـــة، تكون ناقصة في نظر التصوف. فهكذا لا يهم الفقه في سائر الأحكام الشرعية إلا هل أدّى المرء الأعمال على الوجه الذي أمر به لأدائها أم لا ؟ أما التصوف فيبحث عما كـــان في قلبه من الإخلاص وصفاء النية وصدق الطاعة عند قيامه بهذه الأعمال.

ويمكنك أن تدرك هذا الفرق بين الفقه والتصوف بمثل أضربه لك. إنك إذا أتـــاك رجل، نظرت فيه من وجهتين : إحداهما هل هو صحيح البدن كامل الأعضاء أم في بدنه شيء من العرج أو العمى ؟ وهل هو جميل الوجه أو دميمه ؟ وهل هو لابس زياً فاخراً أو ثياباً بالية : والوجهة الأخرى أنك تريد أن تعرف أخلاقه وعاداته وخصاله ومبلغـــه مـــن العلم والعقل والصلاح. فالوجهة الأولى وجهة الفقه، والوجهة الثانية وجهة التـــصوف. وكذلك إذا أردت أن تتخذ أحداً صديقاً لك، فإنك تتأمل في شخصه من كلا الوجهتين، وتحب أن يكون جميل المنظر وجميل الباطن معاً. كذلك لا تجمل في عين الإسلام إلا الحياة التي فيها اتباع كامل صحيح لأحكام الشريعة من الوجهتين الظاهرة والباطنة. ومثل الذي طاعته صحيحة في الظاهر، ولكن يعوزه روح الطاعة الحقيقية في الباطن، كمثـــل جـــسد جميل الوجه قد فارقه روحه. ومثل الذي في عمله الكماليات الباطنة كلها وليست طاعته صحيحة على حساب الوجه المراد في الظاهر، كمثل رجل صالح دميم الوجـــه مطمـــوس العينين أعرج القدمين.

وسهل عليك بهذا المثال أن تعرف العلاقة بين الفقه والتصوف ولكن ممـــا يـــدمي القلب ويبكي العين، أنه لما أصيبت العلوم والأخلاق بـــالزوال والانحطـــاط في الأزمـــان الأخيرة، وحدث بزوالها ما حدث من المفاسد والسيئات، قَذِّرت عين التصوف الـــصافية أيضاً، وتعلم المسلمون كثيراً من الفلسفات غير الإسلامية من الأمم الضالة، وأدخلوها في الإسلام باسم التصوف. وأطلقوا إسم التصوف على كثير من العقائد والطرق الأجنبية التي لا أصل فيها في الكتاب والسنة. ثم تدرج هؤلاء الناس في تحرير أنفـــسهم عـــن قيـــود الإسلام، وقالوا إنه لا علاقة للتصوف بالشريعة، فإن هذا في واد، وذلك في واد، وما على الصوفي أن يقيد نفسه بالقانون وأحكام الشريعة. إنك كثيراً ما تسمع بمثل هذه الأوهـــام والترهات من كثير من الصوفية الجاهلين، ولكن ليست كلها في حقيقة الأمر، إلا من قبيل الخرافات والأكاذيب. لا يحل لصوفي أن يتحلل من قيود الصلاة والحج والزكاة، ولا يحق لصوفي أن يخالف حكماً من الأحكام التي بينها الله ورسوله الكريم صلى الله عليه وســـلم، عن الاقتصاد والاجتماع والمعاشرة والأخلاق والمعاملات والحقوق والواجبات وحـــدود الحلال والحرام، ولا يستحق من لا يتبع الرسول ﷺ اتباعاً صحيحاً ولا يتقيد بما أرشـــد إليه من صراط الحق، أن يسمي نفسه صوفياً إسلامياً، فإن مثل هذه التصوف لـــيس مـــن الإسلام في شيء أبداً. إنما التصوف عبارة، في حقيقة الأمر، عـــن حـــب الله ورســـوله الصادق، بل الولوع بهما، والتفاني في سبيلهما، والذي يقتضيه هذا الولوع والتفـــاني، ألا ينحرف المسلم قيد شعرة عن اتباع أحكام الله ورسوله صلى الله عليـــه وســـلم. فلـــيس التصوف الإسلامي الخالص بشيء مستقل عن الشريعة، وإنما هو القيام بأحكامها بغاية من الإخلاص وصفاء النية وطهارة القلب.

الفصل السابع

أحكام الشَريعَة

في هذا الفصل الأخير نبين لك من مبادئ الشريعة وأحكامها المهمة ما ستعلم منه كيف تجعل الشريعة الإسلامية حياة الإنسان مقيدة بضابطة محكمة وما في هذه الضابطة من الحكم والمصالح.

مبادئ الشريعة :

إنك إذا تأملت في نفسك، علمت أنك قد جئت هذه الدنيا مودعاً في نفسك كثيراً من القوى، التي تقتضي كل واحدة منها أن تستخدمها ولا تهمل شأنها. ففيك العقل والعزم والرغبة، والنظر والسمع والذوق، وقوة اليدين والرجلين، وعاطفة النفرة والغضب والشوق والحب والخوف والطمع، وليس شيء منها بعديم المنفعة، وما أوتيته إلا لأنك في حاجة إليه. والذي يتوقف عليه نجاحك في هذه الدنيا، أن تحقق ما تتطلبه إليك فطرتك وطبيعة نفسك.

ولكن لا يمكن ذلك إلا بأن تستخدم القوى التي أوتيتها في نفسك.

ثم لا يخفى عليك أنك قد أوتيت وسائل، يمكنك أن تستخدم بها هذه القوى المودعة في نفسك. فأول وسيلة من هذه الوسائل هي جسدك، الذي تجد فيه الأدوات الضرورية كلها، ثم حولك هذه الدنيا، التي انتشرت فيها وسائل مختلفة لا تقع تحت الإحصاء. ففيها الناس من جنسك لمساعدتك، والبهائم لخدمتك، والنباتات والجمادات والأرض والماء والهواء والحر والنور، وما إلى مثل هذه الأشياء الكثيرة التي لا يحصيها إلا الله، والله تعالى ما خلق هذه الأشياء في هذا الكون إلا لتستخدمها وتستمد منها في قضاء حياتك.

ثم انظر في الواقع من وجهة أخرى.

إنك ما أوتيت هذه القوى إلا لنفعك لا لمضرتك. فالصورة الصحيحة لاستخدامها صورة فيها النفع لا المضرة، وإن كانت فيها المضرة، فإلى حد لا بد منه. يقول العقل : إن كل صورة دون هذه الصورة غير صحيحة. فمثلاً إذا عملت عملاً مضراً في نفسك، كنت على الخطأ، وكذلك إذا استخدمت قوة من قواك على وجه يضر غيرك، كنت أيضاً من المخطئين. وكذلك إذا استعملت قوة من قواك على وجه يهمل ما أودع في نفسك من الوسائل، كنت أيضاً من الخاطئين. يشهد لك عقلك أن المضرة، ولو من أي نوع كانت، عليك أن تبتعد عنها، ولا تصبر عليها إذا كان الابتعاد عنها غير ممكن أو إذا كانت بإزائها فائدة كبيرة.

ثم إذا تقدمت، علمت أن الدنيا يوجد فيها نوعان من البشر، نوع من الذين يستخدمون بعض قواهم عمداً، في الوجوه التي تفسد عليهم سائر قواهم، أو تجلب المضرة على غيرهم من البشر، أو هم يهملون أدواتهم التي أودعوها في أنفسهم. والنوع الثاني، من الذين يفعلون كل ذلك من غير قصد من أنفسهم. فرجال النوع الأول من الأشرار، وهم في حاجة إلى قانون شديد يأخذ على أيديهم. ورجال النوع الثاني من الجهال، الذين لا يعلمون شيئاً، وهم محتاجون إلى علم يشعرهم بالصورة الصحيحة لاستخدامهم قواهم.

ولقد جاءت الشريعة الإسلامية تسد هذه الحاجة، وتحقق هذا الغرض، فلا تريد أن تهمل قوة من قواك، أو تمحو رغبة من رغباتك، أو تنفي من عواطف نفسك، فهي لا تقول لك : اترك الدنيا، واقض أيام حياتك في الجبال والغابات والكهوف والمغارات، واشدد على نفسك واكسر سورتها، وذللها بالمصائب والشدائد، وحرم عليها زينة الحياة الدنيا ولذاتها ونعمها. كلا ! فإنها شريعة عني بوضعها الله الذي خلق للإنسان هذه الدنيا، فكيف يرضى لكونه بالامحاء والخراب والفناء ؟ إن الله تعالى ما أودع الإنسان في نفسه قوة لا تنفعه ولا يحتاج إليها. وكذلك ما خلق شيئاً في السماوات ولا في الأرض عبثاً، بل يريد أن يبقى معمل الكون هذا يسير سيراً مستمراً على نظام مدبر، ينتفع فيه الإنسان من كل شيء، ويستخدم مختلف أسبابه ووسائله. ولكن على وجه لا يضر نفسه ولا أحداً غيره. ولهذا الغرض نفسه وضع الله تعالى ما وضع من قواعد الشريعة وضوابطها. وهكذا حرمت هذه الشريعة على الإنسان كل شيء يجلب إليه الضرر، وأحلت له كل شيء يعود عليه بالنفع ولا يضر غيره. إن المبدأ الذي يقوم عليه بناء الشريعة الإسلامية، هو أن الإنسان من حقه أن يعمل لتحقيق رغبات نفسه وحاجاتها، ويسعى في سبيل منفعته الذاتية كيفما يشاء. ولكن من الواجب عليه في الوقت نفسه، ألا يتمتع بهذا الحق، إلا من حيث لا يضيع حقوق غيره من البشر بجهله أو شره، بل ينبغي أن يكون مساعداً لهم ومتعاوناً معهم على قدر وسعه. أما الأمور التي فيها ناحية للنفع وناحية للضرر، فتقول فيها الشريعة : إن الإنسان عليه أن يتحمل الضرر الخفيف للنفع الكبير ويترك النفع التافه احترازاً من الضرر الشديد.

لا يمكن أن يعرف كل إنسان، في كل زمان، عن كل شيء أو عمل، ما فيه من النفع أو الضرر. ولذا وضع الله تعالى – وهو العليم الخبير الذي لا يخفى عليه سر من أسرار الكون – نظاماً صحيحاً كاملاً لحياة الإنسان، وما كان الناس ليفطنوا إلى كثير من مصالح هذا النظام في القرون القديمة : ولكن رقي العلم في هذا الزمان قد كشف عنها الغطاء، بل لا يزال الناس يجهلون كثيراً من مصالحه في هذا الزمان أيضاً، ولكنها لا تزال تتكشف وتتجلى لأعين الناس، على قدر ما يكتب للعلم من الرقي والنمو.

والذين عولوا على علمهم الناقص وعقولهم الضعيفة، ما وجدوا لأنفسهم بداً في آخر الأمر، أن يتخاروا قاعدة من قواعد هذه الشريعة نفسها، بعدما هاموا على

وجوههم، وخبطوا في ظلمات الجهل والخطأ والضلال خبط عشواء إلى قرون. أما الذين اعتمدوا على رسول الله، واهتدوا بهديه، واستناروا بنوره، فقد أمنوا عواقب الجهل ومضراته، فهم يواظبون دائماً على قانون وضع على قواعد العلم الصحيح الخالص، سواء أعرفوا ما فيه من المصالح، وما في اتباعه من المنافع، أم لم يعرفوا.

الحقوق وأقسامها الأربعة :

وبحكم الشريعة الإسلامية، يجب على كل فرد من أفراد البشر أربعة أقسام من الحقوق :

١- حقوق الله.
٢- حقوق النفس.
٣- حقوق العباد.
٤- حقوق ما تحت يده في هذه الدنيا من شيء يستخدمه وينتفع منه.

من الواجب على كل مسلم صادق، أن يعرف هذه الأقسام الأربعة من الحقوق، ويؤديها بكل إخلاص وأمانة وصدق. والشريعة الإسلامية قد بينت كلاً من هذه الأقسام على حدة، ووضعت وأوضحت لأدائها من الطرق والمناهج، ما يساعد البشر على أدائها معاً في آن واحد، بحيث لا يضيع منها حق ما ضمن حدود الإمكان.

حقوق الله :

إن أول حق من حقوق الله تعالى أن يؤمن به، ولا يُشرك به، ولا يتّخذ غيره إلهاً ولا رباً. ويؤدى هذا الحق بالإيمان بكلمة " لا إله إلا الله " كما بينا لك من قبل.

والحق الثاني من حقوق الله، أن يذعن إذعاناً تاماً لما جاء به من عنده من الحق والهداية. ويؤدى هذا الحق، بالإيمان ب " محمد رسول الله " كما أوضحنا لك من قبل.

والحق الثالث من حقوق الله، أن " يطاع " ويُؤَدّى هذا الحق، باتباع القانون الذي بينه كتاب الله المجيد وأوضحته وشرحته سنة رسوله صلى الله عليه وسلم، كما أشرنا إليه من قبل.

والحق الرابع من حقوق الله، أن " يُعبد "، ولأداء هذا الحق، فرض على الإنسان ما فرض من الفرائض والواجبات التي مرّ ذكرها في الفصل الخامس. ولأن هذا الحق أولى من غيره، يجب أن يضحّى لأدائه بسائر الحقوق إلى حد ما. فمثلاً إن الإنسان عندما يقوم لأداء فريضة الصلاة أو الصوم، يضحي بكثير مما عليه من حقوق نفسه : يستيقظ مبكراً، ويتوضأ بالماء البارد، ويترك كثيراً من أعماله المهمة وأشغاله الشاغلة غير مرة واحدة في الليل والنهار، لأداء فريضة الصلاة، ويدع طعامه وشرابه، ويكبح نفسه شهراً كاملاً، لأداء فريضة الصوم. ويؤثر حب الله على حب المال لأداء فريضة الزكاة، ويقاسي وعثاء

السفر وشدائده وينفق كثيراً من أمواله، في الحج، ويضحي بنفسه وماله في الجهاد. وكذلك يضحي بما عليه من حقوق الناس لأداء حقوق الله إلى حد قليل أو كثير. ففي الصلاة مثلاً، يكف العبد عن خدمة سيده، ليعبد سيده الأكبر، ويؤدي ما عليه من حقه، وفي الحج، يفتر عن شؤون معاشه وتجارته، ويغادر أهله وأبناءه، ويسافر إلى بيت الله الحرام، مما يمس بحقوق كثير من غير شك، وفي الجهاد، لا يَقتل الإنسان ولا يُقتل إلا لوجه الله تعالى وحده. وكذلك يضحي الإنسان لأداء حقوق الله، بكثير من الأشياء التي يتصرف فيها وهي تحت يده، كالتضحية بالحيوانات وإنفاق المال.

على أن الله تعالى وضع لحقوقه حدوداً، حتى لا يضحي بحقوق غيره لأداء حق من حقوقه إلا إلى حد لا بد منه. خذ لذلك الصلاة مثلاً، فالله تعالى ما أراد بك العسر في أداء الصلاة بل أراد اليسر، فإنك إذا لم تجد الماء، أو كنت مريضاً، فلك أن تتيمم صعيداً طيباً، وإن كنت على سفر، فلك أن تقصر من صلاتك، وإن كنت مريضاً، فلك أن تصلي قاعداً أو مضطجعاً. وإن الذي تقرأ به في صلاتك من القرآن ليس بكثير، حتى أنك لا تصرف في القراءة به إلا دقائق معدودة. تقول الشريعة: إنك إذا كنت في حال من الدعة والطمأنينة، فلك أن تقرأ في صلاتك بما شئت من القرآن، كسورة البقرة أو آل عمران أو النساء، أو غير هذه من السور الطوال. ولكن لا يجوز لك أن تطيل صلاتك في أوقات شغلك. ثم إن الله تعالى، وإن كان يفرح كثيراً إذا تطوع الإنسان وتقرب إليه بالنوافل بعد الصلوات المكتوبة، ولكنه لا يريد أبداً أن تحرم على نفسك نوم الليل وراحة النهار، أو تقضي أوقات الكسب في النوافل، أو تنقطع إلى الصلاة عن شؤون الدنيا كلها، ولا تكترث لما عليك من حقوق عباد الله.

وكذلك قد يسر الله عليك كثيراً في الصوم، فإنه ما افترض الصوم على عباده إلا مدة شهر من السنة، ويجوز تأخيره إلى أيام أخر، إذا كان الإنسان مريضاً أو كان على سفر. ولا يجوز أن تضاف دقيقة واحدة إلى ما حدد للصوم من الوقت، وللصائم أن يأكل ويشرب حتى يتبين له الخيط الأبيض من الخيط الأسود — أي السّحَرُ — من الفجر. ثم إذا أتمّ صومه إلى غروب الشمس، فعليه أن يفطر على الفور ثم إن الله تعالى وإن كان يفرح بعبده كثيراً إذا صام صوم التطوع بعد صيام شهر رمضان المكتوب، ولكنه لا يحب منه أبداً أن يواصل في صومه وينهك بدنه ويقعد عن أعمال الدنيا.

وكذلك ما قرر الإسلام إلا أزهد مقدار من المال لإيتاء الزكاة، وما فرضه إلا على الذين يملكون النصاب. فمن تطوع بعد ذلك وتصدق بأكثر من ذلك في سبيل الله، فإن الله وإن كان يرضى عنه ويحب عمله يحبّذ عاطفته، ولكنه لا يريد منه أن يضحي بما عليه من حقوق نفسه وأهله، وينفق في سبيله جميع أمواله، ويقعد ملوماً محسوراً بين الناس، بل يجب عليه القصد والاعتدال في هذا الباب أيضاً.

ثم انظر إلى الحج، فالمعلوم في بابه أن الله تعالى لم يفترضه إلا على الذين يملكون الزاد، ويقدرون على تحمل وعثاء السفر ومشاقه. ولكن الله قد زاد للناس السهولة فيه، فلم يفترضه على الإنسان إلا مرة واحدة في طوال عمره. وإن كانت في الطريق الحرب أو الفتنة، أو خاف على نفسه، فله أن يُرجئ الحج إلى ما بعد زوال تلك الفتنة، وكذلك قرر أن لا بد للإنسان من رضا الوالدين إذا أراد الحج لئلا يتأذيا في غيابه لعجزهما وكبر سنهما. فيتبين من كل ذلك أن الله تعالى قد راعى كثيراً حقوق غيره في حقوقه جلّ شأنه.

وأكبر تضحية بالحقوق الإنسانية يؤديها الإنسان في الجهاد، فإن الإنسان في الجهاد يضحي بنفسه وماله وبنفوس الآخرين وأموالهم ابتغاء لمرضاة الله. ولكن من قواعد الإسلام ومبادئه الأساسية، كما بينا لك من قبل، أن يتحمل الضرر الخفيف احترازاً من الضرر الشديد، فإذا تفكرت في هذا المبدأ وعرفته، وجدت أن قتل بضع مئات أو ألوف من أفراد البشر، أهون ضرراً بالنسبة لأن تعلو في الأرض كلمة الباطل بإزاء الحق، ويغلب دين الله على أمره بإزاء قوى الكفر والشرك والإلحاد، ويعم في الأرض الضلال والإباحية والفوضى. فاحترازاً من هذا الضرر الشديد أمر الله تعالى عباده المؤمنين أن يتحملوا في سبيله وابتغاء وجهه ما يصيبهم في أنفسهم وأموالهم من الضرر الخفيف. ومع ذلك أمرهم ألا يقتلوا إلا نفساً لا بد من قتلها، ولا يعتدوا على العجزة والنساء والأطفال والجرحى والمرضى، ولا يقاتلوا إلا الذين يقاتلونهم حماية لباطلهم، ولا يعثوا في أرض العدو مفسدين من غير ما حاجة ولا سبب، وأن يعدلوا بين الأعداء إذا فتحوا بلادهم وانتصروا عليهم، ويوفوا بكل ما يعاهدونهم عليه، ولا سبيل لهم عليهم إذا كفوا أيديهم وأمسكوا عن معاداة الحق ومخالفته ومناصرة الباطل. فيدل كل ذلك، على أن الله لم يجز لأداء حقه، إلا تلك التضحية بالحقوق الإنسانية التي لا بد منها.

حقوق النفس :

ولك أن تتناول الآن القسم الثاني مما على الإنسان من الحقوق، وهي حقوق نفسه:

ولعل العجب يأخذك إذا قلت لك : إن الإنسان يظلم نفسه أكثر مما يظلم غيره، لأن كل إنسان يحس ويحسب أن نفسه أحب إليه من غيره، ولا أرى أحداً يقر بأنه عدو لنفسه. لكنك إذا تدبرت هذا الأمر قليلاً، تبينت لك حقيقته.

من أبرز مواطن الضعف التي فطر عليها الإنسان، أنه إذا غلبته شهوة من الشهوات، انقاد لها كل الانقياد، ولا يبالي بما يصيبه لأجلها من الضرر في نفسه، سواء أكان يشعر بذلك أو لا يشعر. ترى رجلاً قد افتتن بالسكر، يعمى في سبيله ويتحمل لأجله المضارّ الفادحة في صحته ونفسه وماله وعرضه وترى رجلاً غيره قد أولع بلذة الطعام، يأكل كل ما يجد من نافع أو غير نافع، ويعرض نفسه للهلاك في سبيله. وترى رجلاً ثالثاً صار عبداً لشهواته النفسانية، يأتي بأعمال تجره إلى الهلاك جراً، وترى رجلاً رابعاً قد أهمته نجاة

نفسه، فانقطع إلى تزكية روحه وترقيتها. يناصب نفسه العداء، ويريد أن يدوس كل ما تتطلع إليه من اللذائذ والشهوات، ويأبى أن يحقق حاجاتها، ويجتنب الزواج، ويأنف الأكل والشراب، ويجانف اللباس ويبغضه، حتى أنه لا يكاد يرضى بالتنفس في هذه الدنيا المملوءة بالمآثم في نظره، فيأوي إلى الغابات والكهوف ويظن أن هذه الدنيا ما بنيت له.

هذه أمثلة قليلة لتطرف الإنسان في هذه الدنيا، وإلا ففي حياته صور عديدة لهذا التطرف، نشاهدها بين كل آونة وأخرى.

وبما أن الشريعة الإسلامية تريد فلاح الإنسان وسعادته، فهي تنبهه إلى الحقيقة الثابتة القائلة : " إن لنفسك عليك حقاً ". وهي تمنعه عن كل شيء يضره، كالخمر والحشيش والأفيون وغيرها من الأشياء المسكرة، وعن الميتة والدم ولحم الخنزير وغيره من الوحوش الضارية والمسمومة والحيوانات النجسة، فإن لهذه الأشياء تأثيراً سيئاً في صحة الإنسان وأخلاقه وقواه العقلية والروحية، وتحل له بدلاً منها الأشياء المفيدة الطيبة، وتقول له : لا تحرم نفسك من التمتع بها فإن لجسدك عليك حقاً.

وهي تنهاه عن العري، وتأمره أن يتمتع بما قد أنزل الله له من الزينة في هذه الدنيا، ويستر من جسده الأعضاء التي يعد من الوقاحة الكشف عنها.

وهي تأمره بالجد في كسب الرزق، وتقول له : لا تقبع في بيتك عاطلاً، ولا تمدّن يدك إلى الناس مستجدياً جدواهم، ولا تلفظ نفسك جوعاً، واستخدم ما قد أنعم الله عليك من القوى، واسع بالطرق المشروعة لنيل ما قد خلق الله في الأرض والسماوات من الوسائل والأسباب لراحتك وتربيتك.

وهي لا تسمح أن يكبح شهوات نفسه كل الكبح بل تأمره بالزواج لقضاء ما في نفسه من الشهوة.

وهي تمنعه عن تذليل النفس وحرمانها من رغد العيش ومتعة الحياة، وتقول له : إنك إن كنت تريد الرقي الروحاني، والتقرب إلى الله، والنجاة في الآخرة، فلا حاجة لك ولا داعي إلى ترك الدنيا، فإن ذكر الله تعالى في هذه الدنيا، مع التمتع بلذاتها ومنافعها، واجتناب معصيته واتباع قانونه وشريعته، لهو أكبر وسيلة وأنجعها إلى الفلاح والسعادة في الدنيا والآخرة.

وهي تحرم عليه الانتحار، وتقول له : إن هذه النفس التي قد أوتيتها إن هي إلا ملك لله، قد أودعها أمانة عندك، لتستخدمها إلى أجل مسمى، وما أوتيتها لتعبث بها وتقضي عليها بيدك.

حقوق العباد :

أمرت الشريعة الإسلامية الإنسان بأداء حقوق نفسه وجسده في جانب، وأمرته في الجانب الآخر، ألا يؤدي هذه الحقوق على وجه يمس بحقوق غيره من عباد الله في الدنيا.

فإنه إذا قضى شهواته ورغباته على هذا الوجه، نجّس نفسه وأضر بغيره. فلأجل ذلك قد حرمت الشريعة النهب والسلب والسرقة والارتشاء والخيانة والتزوير والغدر وأكل الربا، فإن المنفعة التي يكسبها الإنسان بهذه الطرق، إنما يكسبها بجلب الضرر إلى غيره في حقيقة الأمر. وكذلك حرمت عليه الشريعة الكذب والغيبة والنميمة والافتراء، فإن هذه الأمور أيضاً تجلب الضرر إلى غيره من عباد الله. وكذلك حرمت عليه القمار والميسر واليانصيب، فإن منفعته في هذه كلها، لا تكون مبنية إلا على ضرر ألوف من الناس غيره، وكذلك حرمت عليه صفقات الغش والغرر وغيرها من الشؤون المالية الأخرى التي يمكن أن يصيب الضرر فيها أحد الفريقين دون صاحبه. وكذلك حرمت عليه القتل والإفساد في الأرض وإفشاء الفتنة، فإنه لا يحل لأي فرد من أفراد البشر، أن يقتل غيره أو يصيبه بنوع من الأذى حصولاً على أمواله، أو إرواء لغليله في النفس. وكذلك حرمت عليه الزنا وعمل قوم لوط، فإن هذه الأعمال تفسد عليه صحته وأخلاقه في جانب، وتؤدي إلى تفشي الإباحة والوقاحة والاستهتار في المجتمع في الجانب الآخر وتفضي به أخيراً إلى الأمراض الخبيثة فيها وتفسد فيها الإنسان، وتحدث الفتن، وتخل بالعلائق الإنسانية، وتزعزع قواعد الحضارة والمدنية.

هذه قيود وضعتها الشريعة الإسلامية على الحياة الإنسانية، لئلا يسلب الإنسان حقوق غيره، أو يبخس منها شيئاً، أداء لما عليه من حقوق نفسه وجسده. ولكنه لا يكفي لترقية المدنية الإنسانية وإسعادها، ألا يصيب الإنسان غيره بشيء من الضرر، بل لا بد لهذا الغرض في الوقت نفسه أن تكون علائق الناس وصلاتهم فيما بينهم، قائمة على وجه يجعلهم جميعاً متعاونين على الخير، متناصرين على المصالح الاجتماعية، وفيما يلي نذكر لك خلاصة ما وضعت الشريعة الإسلامية من القوانين لهذا الغرض:

(أ) إن العلائق البشرية تبتدئ بحياة الأسرة، فلك أن تنظر نظرة في حياة الأسرة قبل غيرها. وما الأسرة في حقيقة الأمر إلا ذلك المجموع الذي يضم الزوجين وأولادهما. فالذي يضع عليه الإسلام أساس الأسرة، هو أنه من واجب الزوج أن يكسب للأسرة، ويهيئ لها حاجتها، ويدافع عن أفرادها، وأنه من واجب المرأة أن تدبر شؤون المنزل بما يكسبه الزوج، وتهيء أكبر راحة ممكنة لزوجها وأولادها، وتعنى بتربية الأولاد، وأنه من واجب الأولاد، أن يطيعوا أبويهم ويجلوهما ويخدموهما إذا كبروا. ولأجل أن يبقى نظام الأسرة سائراً على الخير والرشد والصلاح فقد اختار الإسلام تدبيرين، أولهما أن جعل الزوج والأب حاكماً على الأسرة ناظراً لشؤونها، فإنه كما لا يمكن أن يصلح نظام بلدة من البلدان ويسير أمرها بدون حاكم قائم على شؤونها، أو أن يسير نظام مدرسة من المدارس بدون رئيسها، كذلك من المستحيل أن يصلح ويسير نظام الأسرة بدون أن يكون عليها حاكماً عليها ناظراً لشؤونها، ولا بد أن تعم الفوضى والاضطراب في أسرة يكون كل فرد من أفرادها مستقلاً برأيه، غير مسؤول عن شيء من أعماله، وأن ينعدم فيها الهناء

والطمأنينة والسكينة. ولا بد لإزالة هذه المفاسد، أن يكون للأسرة حاكم قوام على شؤونها، وإنما الرجل هو الذي يمكن أن يكون المسؤول عن تربية أهل البيت وحمايتهم.

والتدبير الثاني، أنه قد أمر المرأة، بعدما ألقى على كاهل الرجل تبعة ما في خارج البيت من الشؤون والمعاملات ألا تخرج من المترل بدون حاجة تعرض لها. وقد أعفيت لأجل ذلك من المسؤولية عما في خارج المترل من الشؤون، لتقوم بواجباتها في داخل المترل حق القيام بكل هدوء وطمأنينة، ولا يختل نظام المترل وتربية الأولاد بخروجها من البيت. ولكن ليس معنى ذلك أن المرأة لا يجوز لها أبداً أن تخرج من البيت، بل قد أذن لها بالخروج منه إذ ما عرضت لها حاجة إلى ذلك، وإنما تريد الشريعة أن يكون البيت هو الدائرة الحقيقية لواجباتها، ولا تصرف كل ما أوتيت من القوة والذكاء إلا في إصلاح شأن البيت.

وبقربات الدم وعلائق التزاوج تتسع دائرة الأسرة، فالذين يتصلون فيما بينهم في هذه الدائرة، قد قررت الشريعة لإصلاح ذات بينهم وجعلهم متساندين متناصرين فيما بينهم، قواعد مختلفة مبنية على الحكم البالغة. من هذه القواعد.

١- حرمت الشريعة بعض الذين يتعاشرون فيما بينهم مختلطين من الرجال والنساء على بعض، كالأم وابنها، والأب وبنته، وزوج الأم وربيبته، وزوجة الأب وابن زوجها، والأخ وأخته بالرحم وبالرضاعة، والعم وبنت أخيه، والعمة وابن أخيها، والخال وبنت أخته، والخالة وابن أختها، وأم المرأة وزوج ابنتها، وأبي الزوج وامرأة ابنه. ومن الفوائد الكثيرة لتحريمها أن أمثال هؤلاء الرجال والنساء تبقى علاقتهم طاهرة نقية، وهم يختلطون فيما بينهم بكل حب ومودة وإخلاص، من غير كلفة ولا ارتياب.

٢- وقد أجل الإسلام بعد هذه العلائق، علاقة الزواج بين أفراد الأسرة الآخرين، ليزداودا قرابة على قرابتهم وحباً على حبهم. إن الذين يعرف بعضهم عادات بعض وطباعهم وخصالهم، تكون علاقة الزواج بينهم أكثر نجاحاً منها بين الذين لا يتعارفون فيما بينهم، وكثيراً ما تنشأ في الزواج بين الأجانب، صور الخصومة وعدم التوافق. ولأجل ذلك قد آثر الإسلام ذوي الكفء على غيرهم للزواج.

٣- وفي الأسرة الغني والفقير، وذو اليسرة وذو العسرة، لذا نص الإسلام على أن أكبر ما على الإنسان من حقوق العباد هو لذوي قرباه، وذلك ما يقال له " صلة الرحم " في الشريعة. وقد تاكد وتكرر ذكر صلة الرحم في القرآن والسنة، واعتبر قطعها من الكبائر. فإن نزلت نازلة بذي عسرة، فمن واجب الذين يجدون سعة في أموالهم من أقاربه، أن يغيثوه ويمدوا إليه يد المعونة. كما أن حق الأقرباء في الصدقة قد أوثر على حق غيرهم.

٤- وقد وضع الإسلام قانون الإرث، من حيث إذا مات رجل وترك من بعده مالاً، فلا ينبغي أن يبقى هذا المال متجمعاً مرتكزاً في محل واحد، بل لا بد أن ينال منه

كل ذي قرابة نصيبه. فالابن والبنت والزوجة والزوج والأب والأم والأخ والأخت أقرب ذوي الحق للإنسان، ولذا بينت الشريعة أنصبتهم في القرابة قبل أن تبين حقوق غيرهم. فإن لم يكونوا موجودين مثلاً، ينال النصيب كل من يليهم في القرابة، وهكذا تتوزع ثروة الرجل الواحد بين كثير من ذوي قرباه ويتمتعون بها جميعاً بعد موته، فقانون الإسلام هذا لا نظير له في قوانين العالم القديمة ولا الحديثة، وإن كانت بعض الأمم قد بدأت اليوم في الدنيا تترسم خطا الإسلام في هذا القانون، ولكن من دواعي الأسف أن المسلمين أنفسهم شرعوا في مخالفته بجهلهم وسفاهتهم، وقد عمّ المسلمين في أكثر نواحي بلادنا — في قرانا خاصة — مرض حرمان البنات من الميراث، مما هو ظلم شنيع، ومخالفة لأحكام القرآن الصريحة الواضحة.

(ب) وبعد علائق الأسرة يتصل الإنسان بأصدقائه، وجيرانه، وأهل حيه وأهل بلدته، والذين قد تعرض له الشؤون المختلفة معهم. وقد أمر الإسلام بمعاملة هؤلاء جميعاً بالصدق والعدل وحسن الخلق. ولا تؤذوا منهم أحداً واجتنبوا فحش القول وسوء الكلام معهم، وتناصروا فيما بينكم، وعودوا مرضاكم، واتبعوا جنائز موتاكم، وإذا أصيب منكم أحد بمصيبة فواسوه، وأعينوا الفقراء والمحتاجين والعجزة فيكم سراً وخفية، وتعهدوا اليتامى والأيامى منكم بالعطف عليهم، وأطعموا الجائع واكسوا العاري، وانصروا العاطل حتى يجد لنفسه المكسب. وإذا كان الله قد آتاكم من فضله، فلا تنفقوه ولا تسرفوا به في بذخكم وترفكم. وقد حرّمت الشريعة عليكم أن تأكلوا وتشربوا في أواني الذهب والفضة، وتتزينوا بالملابس الحريرية، وتضيعوا المال في مواضع البذخ والترف. كل ذلك لأن الثروة التي يمكن أن يتمتع بها مئات وألوف من عباد الله، لا ينبغي أن يتمتع ويرفل بها فرد واحد كيفما يشاء وتشاء شهواته، فإنه من الظلم أن تبقى الأموال التي يمكن أن يمسك بها ألوف من عباد الله رمق حياتهم، معلقة في جيدك بصورة حلية من الحلي، أو زينة لمنضدتك بصورة آنية من الأواني، أو زينة تفرش بها غرفتك، أو نيراناً صناعية تضيعها في الهواء. ولكن ليس معنى ذلك أن الإسلام يريد أن يسلبك كل ما عندك من الثروة، بل أن كل ما كسبته أو ورثته من أبويك من الأموال، لك ومن حقك المشروع، وأنت مستحق أن تتنعم بثروتك، ويجوز أن ترى في ملبسك ومأكلك ومنزلك ومركبك آثار نعمة الله، ولكن الغرض المقصود من وراء تعاليم الإسلام أن تعيش عيشة طيبة مقتصدة، ولا تكثر من كمالياتك، وأن ترعى في كل ما آتاك الله حقوق ذوي قرباك وأصدقائك وجيرانك وأبناء وطنك وأبناء أمتك وأبناء آدم جميعاً.

(ج) ولك أن تخرج الآن من هذه الدوائر الضيقة، وتنظر في الدائرة الواسعة التي تشتمل على مسلمي العالم جميعاً. فقد وضع الإسلام في هذه الدائرة من القوانين والضوابط ما يجعل المسلمين جميعاً متعاونين متناصرين فيما بينهم على الخير والبر والتقوى،

ولا يسمح للسيئات والمنكرات في حدود الإمكان بأن ترفع رأسها في الأرض. وفيما يلي نشير إلى بعض هذه القوانين :

١ - أمر الإسلام، حفظاً للأخلاق الاجتماعية، بألا يختلط الذين لا يمت بعضهم إلى بعض بالصلات المحرمة من الرجال والنساء فيما بينهم بصورة حرة، ولتكن للنساء بيئة غير بيئة الرجال، ولهن أن يصرفن معظم همهن في القيام بواجبات حياة الأسرة، وإن دعتهن الحاجة إلى الخروج من بيوتهن فلا يخرجن متزينات متبرجات، وليخرجن بملابسهن البسيطة، وليسترن أجسامهن وليسترن وجوههن وأيديهن أيضاً ما لم تدعهن إلى الكشف عنهما حاجة حقيقية شديدة. وليكشفن عنهما لقضاء هذه الحاجة فقط، وهذا ما يقال له " الحجاب " في الشريعة. ومن جهة أخرى أمر الإسلام الرجال باجتناب النظر إلى نساء غير نسائهم، وإذا وقع نظرهم عليهن من غير قصد، فليصرفوه عنهن، ولا يعودوا إليه مرة أخرى، فإن من ذلك ما يعيب أخلاقهم، وإن حاولوا مخالطتهن، فهو أشد عيباً لهم، ومن واجب كل رجل – وكل امرأة – أن يحافظ على أخلاقه، ولا يترك المجال لينشأ في قلبه ويخطر بباله ميلٍ ولو خفيف إلى قضاء شهواته النفسانية، بالخروج عن دائرة الزواج المشروع، فضلاً أن يحاول ذلك ويسعى وراءه سعياً.

٢ - وقد نهى الإسلام لحفظ الأخلاق الجتماعية، أن يكشف الرجل عما بين سرته وركبتيه، وأن تكشف المرأة عمّا دون الوجه واليدين من سائر أعضاء جسدها، ولا لقريب من أقاربها الأدنين، وهذا ما يقال له " الستر " في الشريعة، ومن واجب كل رجل وامرأة أن يحافظ عليه. وقد أراد الإسلام بذلك أن تنشأ في الناس مادة الحياء، ولا تشيع بينهم الفواحش والمنكرات، التي تجر صاحبها أخيراً إلى الإباحة والانحلال الخلقي.

٣ - لا يحب الإسلام من أعمال الطرب واللهو ما كان مفسداً لأخلاق الناس، ومنعشاً لشهواتهم السافلة، ومضيعاً لأوقاتهم وصحتهم وأموالهم ولا شك في أن اللهو شيء ضروري في حد ذاته، ولا بد منه مع العمل والجد لتنشئة روح الحياة وقوة العمل في الإنسان، ولكن ينبغي أن يكون لهواً ينشئ النشاط، ويرطب الروح، ولا يكون لهواً ينغص الروح ويكثفها. أما أعمال الطرب واللهو السافلة التي يشاهد فيها ألوف من الأفراد معاً الحوادث المفروضة لركوب الجرائم، والمناظر الصناعية للإباحية والانحلال الخلقي، فإن هي إلا مما يفسد أخلاق الأمم، وإن كانت جميلة المنظر تسر الناس في ظاهر الأمر.

٤ - وللمحافظة على وحدة المسلمين وسعادتهم الجماعية أمرهم الإسلام أمراً مؤكداً أن يجتنبوا التخالف فيما بينهم، ويبتعدوا عن دواعي التحزب والتفرق. فإن اختلفوا في أمر من أمورهم، فليردوه إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ بكل إخلاص وصفاء نية، ولكن إذا لم يجتمعوا في بابه على شيء، فليكلوا أمرهم إلى الله، ولا يتنازعوا فيما بينهم، وليتعاونوا على أعمال الفلاح والسعادة الجماعية، ويطيعوا أولي الأمر منهم، ويبتعدوا عن رجال الشر والفتنة، ولا يوهنوا قوتهم، ولا يفضحوا أمتهم بالحروب الداخلية فيما بينهم.

٥- وقد أذن للمسلمين أن يتلقوا العلوم والفنون ويتعلموا الطرق النافعة من غير المسلمين، ولكنهم نهوا عن التشبه بهم في حياتهم، فإنه لا تتشبه أمه بغيرها، إلا إذا كانت معترفة لنفسها بالذل والهوان والضعة، وللأخرى بالسبق والعلو والرقي. وهذا من أقذر أنواع العبودية، وهو اعتراف سافر بالانكسار والانحطاط، ومن نتائجه اللازمة أن تنقرض مدنية الأمة المتشبهة المحتذية. ومن أجل ذلك نهى النبي ﷺ المسلمين نهياً شديداً عن اتباع الأمم الأجنبية واختيار مدنيتهم. ومما يفهمه كل من أوتي قليلاً من العقل أن قوة كل أمة لا تقوم على زيها، ولا على طراز حياتها، وإنما تقوم على ما لها من العلوم وجودة التنظيم وقوة العمل. فمن كان يريد القوة والكمال والرقي، فليتلق عن الأمم الأجنبية ما تحصل به الأمم على أسباب قوتها ورقيها وكمالها، ولا يَميلَنَّ إلى ما تتذلل به الأمم، وتنضم إلى أمم أجنبية وتقضي على حيويتها ومقوماتها أخيراً.

وقد نهي المسلمون أن يعاملوا غير المسلمين بالعصبية وضيق النظر، وأن يسبوا آلهتهم ويطعنوا في كبرائهم ويهينوا دياناتهم. وكذلك نهوا عن أن يبدؤوهم بالمخاصمة. فما دام غير المسلمين يريدون المصالحة والمسالمة مع المسلمين، ولا يتعدون على حقوقهم فمن واجبهم أن يعاملوهم بالمصالحة والمسالمة. إن مما يوجبه علينا شرفنا الإسلامي أن نعامل غيرنا بأعلى ما يمكن من عواطف المحبة والمواساة الإنسانية والأخلاق العالية، ومما ينافي أحكام الإسلام وفطرة المسلم، أن نعامل غيرنا بالعصبية وسوء الخلق والظلم وضيق النظر، فإنه ما أخرج المسلم للناس إلا ليكون لهم أسوة يتأسون بها في حسن الأخلاق والشرف وسعة الصدر والصلاح، وليجلب قلوبهم بمبادئه الطاهرة المبنية على الحق والعدل.

حقوق سائر المخلوقات :

هذا ونريد أن نبين لك الآن النوع الرابع من الحقوق :

إن الله قد فضل الإنسان على كثير من مخلوقاته، وأذن له أن يتصرف فيها ويخضعها بقوته، ويستخدمها وينتفع منها فيما يريد. وذلك جزء من حقه المشروع، باعتباره أفضل خلق الله في الأرض. ولكن بإزاء كل ذلك رتب الله على الإنسان حقوقاً لهذه المخلوقات، فمنها ألا يضيعها أو يضرها بما لا يرى لنفسه بداً منه. ويختار لاستخدامها والتمتع بها أحسن الطرق وأعدلها.

وقد فاضت الشريعة الإسلامية بمثل هذه الأحكام المتواترة، فما أذن للإنسان أن يقتل البهائم إلا للغذاء أو اتقاء للمضرة، وقد نُهيَ نهياً شديداً أن يقتلها من غير حاجة على سبيل اللهو والطرب مثلاً. وقد وضع لقتل البهائم المأكولة طريق " الذبح " الذي هو أحسن طريق لأخذ اللحم النافع منها. وكل طريق دون طريق الذبح، وإن كان أقل منه إيذاء للبهيمة، فإنه يضيع كثيراً من فوائد اللحم، وإن كان أكثر منه حفظاً لفوائد اللحم،

فإنه كثيراً منه إيذاء للبهيمة، والإسلام يتجنب هاتين الناحيتين. ونهى نهياً شديداً عن قتل البهائم بالقسوة والإيذاء. وكذلك ما أذن الإسلام بقتل الوحوش الضارية والحشرات السامة، إلا لأن النفس البشرية أجل قدراً وأكثر ثمناً من حياة هذه الوحوش والحشرات، ومع ذلك فهو لا يبيح قتلها بالتعذيب والإيذاء. وكذلك نهى الإسلام نهياً شديداً عن إجاعة الحيوانات التي نستخدم ظهورها في الركوب أو حمل الأثقال، وعن تكليفها فوق طاقتها وعن ضربها بقسوة. وكذلك كره الإسلام أن نحبس الطيور من غير حاجة، بل لا يكاد الإسلام يرضى أن نصيب الأشجار فضلاً عن الحيوانات، بشيء من الضرر، فلنا أن نقطف أزهارها وأثمارها، ولكن لا يحق لنا أن نبيدها أو نقلعها من غير حاجة. بل لا يجيز الإسلام فضلاً عن النباتات ذات الحياة، أن نضيع شيئاً لا حياة فيه، فقد نهى عن صب الماء وإضاعته بدون حاجة.

الشريعة العالمية الدائمة :

كل ما بيناه لك آنفاً إنما هو خلاصة موجزة لأحكام وقوانين تلك الشريعة البيضاء، التي أرسل بها نبينا محمد ﷺ إلى العالمين إلى أبد الآبدين. ولم يفرق بين الإنسان والإنسان في هذه الشريعة شيء غير العقيدة والعمل. والحق أن جميع الشرائع والديانات التي قد فرق فيها بين الإنسان والإنسان، بناء على النسل أو الوطن أو اللون، لا يمكن أن تكون شرائع عالمية، فإنه من المستحيل طبعاً أن يصبح فرد من هذا النسل فرداً من ذلك النسل، كما لا يمكن لأهل الأرض أن ينكمشوا جميعاً ويحدووا أنفسهم في أرض وطن خاص، كما لا يمكن أن يتغير سواد الحبشي أو صفر الصيني أو بياض الأفرنجي عن فطرته، فالظاهر أن مثل هذه الديانات لا تنشأ ولا تعيش إلا في أمة خاصة من الأمم. وبإزائها جمعاء، جاء الإسلام بشريعة عالمية، يمكن لكل من آمن بعقيدتها " لا إله إلا الله محمد رسول الله "، وأن يدخل في الأمة المسلمة ويتمتع فيها بنفس الحقوق التي يتمتع بها سائر المسلمين، فإنه لا عبرة في هذه الشريعة بالنسل أو اللغة أو الوطن أو اللون.

ثم إن هذه الشريعة شريعة دائمة، ليست قوانينها بمبنية على أعراف أمة خاصة أو عوائد زمن محدود، بل هي مبنية على مبدأ الفطرة التي فطر عليها الإنسان. ولأن هذه الفطرة قائمة في كل زمان أو حال ينبغي أن تبقى هذه القوانين التي بنيت عليها قائمة في كل زمان أو حال كذلك.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

المُحتَويات